لغز جاسوس السويس



محمود سالم

لغز جاسوس السويس

تأليف
محمود سالم



لغز جاسوس السويس

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٣ ٢٤٨٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٤.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

رحلة إلى أرض البطولات

أخذت السيارة تمضي مُسرِعةً على طريق القاهرة السويس، في ذلك الصباح المُشرِق في يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٩٧٣م. كان المفروض أن القتال على جبهة قناة السويس قد توقَّف بقرار من الأُمم المتَّحِدة بعد أن حقَّقَت القوَّات المسلَّحة المصرية — وخَلْفها شعب مصر كله — الانتصار التاريخي بعبور قناة السويس، حطَّمت خط «بارليف» المَنيع، وتهاوَت أسطورة الجيش الإسرائيلي كله في ستِّ ساعات من يوم ٦ أكتوبر العظيم.

وكان رُكَّاب السيارة هم «المغامرون الخمسة» ومعهم «زنجر» … أما قائد السيَّارة فكان الأستاذ «كريم» عم «لوزة»، وكان هدف السيارة مدينة «السويس».

ولكن ما الحكاية التي من أجلها يُسافر «المغامرون الخمسة» إلى «السويس»، هل سافروا وراء «لص خطير» أو مغامرة مُثيرة؟ أو أدلَّة هامَّة؟

لا هذا ولا ذاك.

وكانت الحكاية أن للمُغامِرة الصغيرة «لوزة» عمةً تعيش في «السويس»، في المدينة المُحاربة الباسلة. وقد رفضت أن تُغادرها في كل الظروف … برغم أنها تعيش وحيدةً مع خادم … عجوز … بعد أن كَبِر أبناؤها؛ «نبيل» الضابط بالقوات المسلحة، و«حسن» المهندس، و«همت» الابنة التي تزوَّجت وتعيش مع زوجها في أسوان … أما زوج العمة فقد مات منذ سنوات.

وبرغم محاولة الأسرة إقناع العمة «سميحة» بترك «السويس» والإقامة مع أحد أبنائها، إلا أنها رفضت أن تُغادر مدينتها الحبيبة قائلةً: لقد وُلدت هنا، وكبِرت هنا … وعِشت أجمل أيام حياتي في «السويس»، فلماذا أُغادرها؟ كانوا يقولون لها: ولكن الحرب يا ست «سميحة»!

وكانت ترد: حرب! وهل أخاف من هؤلاء ... فليأتوا إلى هنا وسوف أُحاربهم بهذه!

وترفع الست «سميحة» عصاها التي تتوكَّأ عليها ... ويضحكون ... ويتركون حياتها تسير كما اعتادت أن تسير في شقَّتها الجميلة الكبيرة في شارع الحرية.

وكانت «لوزة» تحكي للمُغامرين قصة عمَّتها قائلةً: وآخر مرة رأيتها فيها كانت في الإجازة الماضية ... ودار بيننا الحِوار المُعتاد ... وانتهى ببقائها في مكانها مع الخادمة العجوز «سعدية». إنكم ستجدون في عمتي نموذجًا مُمتازًا للأم المصرية التي ربَّت هؤلاء الأبطال الذين عبَروا يوم ٦ أكتوبر، وحقَّقوا نصرًا لا مَثيل له. كانت الشمس عالية ... والطريق تقطعه غاديةً رائحةً عشراتٌ من سيَّارات الجيش المصفَّحة تحمل الأبطال إلى الميدان أو تعود بهم. وبين حين وحين كان الأصدقاء يلتقون بمجموعة من الدبَّابات الضخمة تهدر على جانب الطريق، فكانوا يلوِّحون بأيديهم للأبطال بتحيَّة النصر ... ومن بعيدٍ كانت تصل طلقاتٌ متقطِّعة للمدفعية، وكلما اقتربوا من المدينة الباسلة زاد زحام السيَّارات والدبَّابات ... وشاهَدوا آثار ضرب الطيران والمدفعية ... ثم دخلوا المدينة الباسلة «السويس»، واتَّجهت السيارة إلى منزل السيدة «سميحة» الذي يقع في شارع الحرية؛ أكبر شوارع المدينة.

وعندما توقَّفت السيارة أمام الباب، ضغط الأستاذ «كريم» على «كلاكس» السيارة، وسُرعان ما أطلَّت من الشُّرفة الخادمةُ العجوز «سعدية» ... وعندما رأت السيارة أسرعت تدخُل لتُخبِر سيدتها التي سحبت عصاها ووقفت تنتظر المجموعة على الباب.

كانت فرحة العمة «سميحة» ﺑ «لوزة»، وببقيَّة الأولاد فرحةً لا توصف ... فقبَّلَتهم جميعًا ... واستقبلت شقيقها «كريم» بتَرْحابٍ بالغ ...

قالت «لوزة»: كيف الحال يا عمَّتي؟

العمة: عظيم ... لقد أُتيحَ لي أن أُشاهد ما لم تُشاهدوه أنتم ... فمن هنا كنت أستطيع سماع المعركة في أثناء العبور العظيم ... لم أكُن أصدِّق نفسي؛ فقد عِشت حتى أرى أكبر انتصارات العرب وأروعها في تاريخهم الحديث ... عِشت ورأيت أُسود مصر البواسل يعبُرون القناة ويستولون على خط «بارليف»، وهكذا أستطيع أن أُقنِعكم بأن بقائي هنا لم يكُن عبثًا ... فقد سمِعت وشهِدت من هذا المنزل العتيق أكثر ما حدَث في اليوم التاريخي يوم ٦ أكتوبر!

قال «عاطف» مُبتسمًا: ألمْ تخافي مُطلَقًا يا ست «سميحة»؟

قالت السيدة العجوز وهي ترمُقه من خلال نظَّارتها البيضاء، وهي تدقُّ الأرض بعصاها: أنا أخاف؟! من أي شيء أخاف؟! لقد كانت أصوات المدافع والصواريخ في أذُني أحلى من الموسيقى!

ومضت السيدة «سميحة» تشرح وتصف ما رأته وسمِعته ... وبعدها قام الأولاد فاغتسلوا، ثم أسرعوا إلى الشارع يُشاهدون من بعيدٍ مياه القناة وهي تمضي في هدوء ... ومن بعيدٍ بدَت قواعد الصواريخ ... والمَعابر التي أقامها جنود مصر وضُباطها الأبطال ... وعلى بعدٍ أكثر شاهَدوا بقايا المعارك الضخمة التي جرَت بين الدبَّابات، وشاهدوا دبَّابات العدو المحطَّمة، وبقايا أسلحته من طائرات ومصفَّحات مُتناثرة على أديم الصحراء الأصفر.

وعندما اجتمعوا بعد ساعة قال «محب»: هل هناك سُكان آخرون في شارعكم يا ست «سميحة»؟!

سميحة: نعم ... ولكن ليسوا كثيرًا ... إنهم قِلَّة!

تختخ: وهل نستطيع زيارة شاطئ القناة والحديث إلى الأبطال المصريين؟

سميحة: طبعًا، ولكن لا بد من إذن.

قال الأستاذ «كريم»: سوف أحصُل لكم على إذن من القوات المسلحة للزيارة، كما حصلت على إذن الحضور.

نوسة: لَيتَك تحصُل لنا على إذن بالمرور إلى الضفَّة الأخرى وزيارة خط «بارليف» ... إن ذلك سيكون بالنسبة لنا شيئًا لا يُنسى.

كريم: سأُحاول!

محب: ألمْ يحدُث قِتالٌ ليلة أمس؟

سميحة: سمِعت من بعيدٍ اشتباكاتٍ قوية!

محب: شيءٌ غريب ... لقد صدَر قرار وقف إطلاق النار أمس، وسمِعت الساعة السابعة إلا ربعًا نداءَ وزير الحربية الذي أذاع فيه أمر القائد الأعلى للقوات المسلحة بإيقاف إطلاق النار اعتبارًا من الساعة ١٨:٥٢ مساء يوم ٢٢ أكتوبر!

لوزة: الساعة ١٨ ... كيف! ... هل هناك ساعة بعد الساعة ١٢؟

محب: في كثير من المصالح الحكومية، ومنها وزارة الحربية، تُحسَب الساعة على أن اليوم ٢٤ ساعة، وبدلًا من الساعة الواحدة بعد الظهر مثلًا يُقال إن الساعة ١٣، ويمكنك حساب الساعات بعد الساعة ١٢ بطرح ١٢ ساعة من التوقيت ... فإذا قيل الساعة ١٣ فمعناها الساعة الواحدة ... وإذا قيل الساعة ١٥ فمعناها الساعة الثالثة، وهكذا ...

الأستاذ «كريم»: لقد سمعت أن العدوَّ لم يلتزم بوقف إطلاق النار.

تختخ: دعونا نسمع الإذاعة؛ فلعلَّ هناك شيئًا جديدًا!

وأحضرت «نوسة» جهاز الراديو «الترانزستور» وكانت الساعة العاشرة والربع صباحًا، وكانت هناك موسيقى عسكرية ... وبعد حواليَ عشر دقائق قطع المُذيع الإرسال، وأذاع البيان رقم ٥٥، واستمع الأصدقاء بانتباهٍ شديد ومعهم السيدة «سميحة» والأستاذ «كريم» إلى المُذيع يقول:

«استغلَّ العدوُّ قرار وقف إطلاق النار، وقام بدفع عدد من دبَّاباته ليلة أمس إلى منطقة «الدفرسوار» مُحاولًا التسلُّل لاكتساب بعض المواقع الجديدة التي لم يكُن له وجود فيها قبل قرار وقف إطلاق النار ... كما قام بإطلاق النيران من بعض مَواقعه، علاوةً على أنه استخدم قوَّاته الجوية ضد بعض قِطَع قوَّاتنا. وتُعلِن القيادة العامة للقوات المسلحة أن هذه الأعمال تُعتبر خَرقًا لقرار وقف إطلاق النار، واستفزازًا للقوات المصرية؛ مما سيضطرُّها إلى رَدع هذه الاستفزازات.»

قالت «لوزة»: وأين هذا المكان المدعو «الدفرسوار» ... وما معناه؟!

كريم: إن «الدفرسوار» مكان في شمال البُحيرات المرَّة التي هي جزء من قناة السويس، ويقع «الدفرسوار» جنوب الإسماعيلية.

لوزة: هل نستطيع أن نذهب إلى هناك بالسيارة؟!

قال الأستاذ «كريم» مُبتسمًا: إن المسافة طويلة، وفي الوقت نفسه ليس مسموحًا بتحرُّك غير العسكريين في أثناء المعارك؛ ففي ذلك خطورةٌ شديدة عليهم!

لوزة: إذن لن نرى المعارك عن قرب!

نوسة: قد تصل إليك المعارك هنا!

ولم تكَد «نوسة» تنتهي من جُملتها حتى دوَّى هدير المَدافع، وسمِعوا جميعًا صوت انفجارات مكتومة تهزُّ الأرض. فقالت السيدة «سميحة»: هذه قنابل وصواريخ الطائرات، إنهم يضربون قريبًا من «السويس».

وأسرعت الخادمة العجوز تنفِّذ تعليمات الدِّفاع المدني ... فتح زجاج النوافذ ... وإغلاق المصاريع الخشبية، وصنابير المياه.

ظلَّ الضرب مستمرًّا. وقالت «لوزة»: ألا نستطيع الصعود إلى السطح لرؤية الضرب؟!

قال الأستاذ «كريم»: هذا ممنوع تمامًا ... إنه يعرِّضك للشظايا المُتطايرة إذا كان الضرب قريبًا.

وجلسوا جميعًا يستمعون إلى أصوات القتال المختلفة ... وكانت السيدة «سميحة» التي تعوَّدت سماع الطلقات تشرح لهم ما يسمعون ... هذه مَدافع مضادَّة للطائرات، مَدافع رشَّاشة ... صواريخ ... طلقات مدفعية بعيدة.

وظل الضرب مستمرًّا ... وزاد اقترابه ... من «السويس» ... وفكَّر الأستاذ «كريم» أنه من الأفضل العودة في المساء إلى القاهرة ... وعندما عرض فِكرته على الأصدقاء رفضوا جميعًا.

وقال «تختخ»: لقد جئنا لقضاء بضعة أيام ... والمدارس معطَّلة ... وأظنُّ أنه يجب على المغامرين الخمسة الاشتراك في المعركة.

قال الأستاذ «كريم» مُبتسمًا: نحن جميعًا على استعداد للاشتراك في المعركة، المهمُّ أن يكون لنا أدوارٌ مُفيدة.

قالت السيدة «سميحة»: أنتم صائمون طبعًا، فبماذا تُفطرون؟

تختخ: لو كان من الممكن أن نأكل سمكًا ... لكان ذلك شيئًا عظيمًا ...

هزَّت السيدة «سميحة» رأسها، وتمايَلت نظَّارتها الطِّبية على أنفها، وقالت: إنك تفكِّر بعقلية الناس الذين لم يُشاهدوا الحرب؛ ف «السويس» مدينةٌ مُحاربة، والطعام قليل، وقد نكون محظوظين جدًّا إذا وجدنا قوافل التموين قد وصلت إلى المدينة حتى نحصُل على طعامنا ... ولكن عندي مفاجأة!

ثم نادت «سعدية» قائلةً: سنستغني عن البَيض من أجل ضيوفنا الأعزَّاء ... جهِّزي لنا ثلاث دجاجات.

قال تختخ: ماذا تقصدين يا ست «سميحة»؟

سميحة: لقد كنت أربِّي عشر دجاجات وديكًا واحدًا، وقد ظلَّت الدجاجات تُعطينا البَيض لنعيش عليه طَوال فترة المعركة ... ولكن بما أن المعركة انتهت فلا بأس من ذبح بعض الدجاج لكم.

ضحِك «تختخ» قائلًا: إننا نعترض يا ست «سميحة» على ذبح هذه الدجاجات.

وأضاف «عاطف» ضاحكًا: إنها دجاجاتٌ مُحاربة!

قالت الست «سميحة»: الحقيقة أنني كنت أُبقيها حتى يصل ابني الرائد «نبيل» سالمًا من المعركة، فأقدِّمها له، إنه يستحقُّها لأنه حارَب.

نوسة: نحن أيضًا سنُبقيها له، وسنُفطر بأي شيء!

وسكت الجميع عندما سمِعوا صوت الانفجارات تتزايد ... وتقترب ... ويعلو صوتها ... ثم زاد الضرب وبدأ المنزل يهتز.

قال «كريم»: أليس هناك مَخبأٌ قريب؟

السيدة «سميحة»: بجِوارنا تمامًا!

كريم: سننزل فورًا.

وأسرعوا جميعًا بالنزول ... وكان بعض الجيران قد وصلوا أيضًا إلى المَخبأ الرطب، واصطفُّوا جميعًا بعضهم بجِوار بعض ... ولاحَظ «تختخ» أن السيدة «سميحة» لم تنزل إلى المَخبأ ... وكذلك الخادمة «سعدية».

وبرغم الضرب العنيف الذي كانت تتعرَّض له المدينة ... واقتراب الضرب كثيرًا من المَخبأ، كان الجميع يبتسمون، وقال رجل لابنه الصغير الذي يجلس على رُكبته: هل أنت خائف؟

قال الولد الصغير: لا ... ولكنني أتمنَّى أن أكون ضابطًا لأخرج إلى هؤلاء الذين يضربون «السويس» بدلًا من الاختباء في المَخبأ.

وضحِك الجميع ... وظهر رجل على الباب ... رمَقه بعض الحاضرين في استغراب، ثم قال أحد الحاضرين: إنني لم أرَ هذا الرجل من زمنٍ بعيد.

ردَّ آخر: ولكنني أذكُره جيدًا ... لقد كان يُتاجر في الساعات منذ عشر سنوات أو أكثر ...

رد ثالث: لا ... منذ عشرين سنة!

وابتسم الرجل لهم قائلًا: لم تُعجِبني الحياة في القاهرة ... لقد عُدتُ للاشتراك في المقاومة الشعبية! ...

ودوَّى انفجارٌ قويٌّ قريب ... وصمت الجميع.

المدينة تُناضل

حواليَ الساعة الثانية بعد الظهر ... خفَّ الضرب قليلًا، وخرج الناس من المَخبأ، وصعِد «المغامرون الخمسة» والأستاذ «كريم» ... إلى حيث كانت السيدة «سميحة» والخادمة «سعدية» مشغولتَين بإعداد الطعام ... دون أن يبدوَ عليهما أي أثر للغارات العنيفة التي كان يشنُّها العدوُّ على المدينة الباسلة.

وجلسوا حول الراديو «الترانزستور» الذي كان يُذيع بعض الأغنيات الحماسية والموسيقى العسكرية ... ثم توقَّفت الأغنيات والموسيقى، وقال المُذيع: سيِّداتي سادتي ... البيان رقم ٥٦.

وتوقَّفوا جميعًا عن الحديث ... وقال المُذيع: انتهز العدوُّ فرصة وقف إطلاق النار، وقام خلال الليل بتدعيم قوَّاته في منطقة «الدفرسوار» ... ثم مهاجمة مَواقع قوَّاتنا وإطلاق النار عليها ... وقد قامت قوَّاتنا بالتصدِّي لمحاولات العدو، واشتبكت معه منذ الصباح في مَعاركَ عنيفةٍ اشتركت فيها الدبَّابات والمدفعية والقوات الجوية ... وقد أسقطنا للعدو أربع طائرات من طِراز «فانتوم» و«ميراج» ... وما زالت الاشتباكات مستمرَّة.

وعادت الموسيقى العسكرية ... واستأنف الجميع حديثهم ... وقال الأستاذ «كريم»: سوف أنزل بعد قليل لمقابلة بعض المسئولين في المدينة ... وأعتقد أننا يجب أن نُغادرها بعد ذلك.

وارتفعت صيحات الاحتجاج من «المغامرين الخمسة»، وقالت «لوزة»: لا أدري لماذا يا عمي تُصرُّ على أن نعود ... إننا جئنا لقضاء أسبوع هُنا ... ولن نُغادر «السويس» قبل انقضاء هذه المدة!

كريم: من الواضح أن العدوَّ قد انتهك وقف إطلاق النار ... وأنه يُحاول حِصار مدينة «السويس» ... فإذا كنتم مُصرِّين على البقاء، فسوف أبحث إمكان اشتراكنا جميعًا في المعركة.

هلَّل الأصدقاء لحديث الأستاذ «كريم»، وقال «تختخ» الذي لاحَظ أن الكلب «زنجر» يهزُّ ذيله: إن «زنجر» متحمِّس أيضًا، ويجب أن نجد له مكانًا في المعركة. ونبح «زنجر» مُبديًا موافقته، ثم نزل الأستاذ «كريم» ومعه «تختخ» و«محب»، واتَّجهوا إلى مبنى المحافظة.

كانوا يسيرون في خطٍّ متعرِّج؛ فقد كانت القنابل تتساقط في كل مكان ... والمَنازل تهتزُّ وتتهاوى. وكان عليهم بين كل لحظة وأخرى أن ينبطحوا أرضًا حتى لا تُصيبهم الشظايا أو الأحجار المُتطايرة. وعندما وصلوا إلى قرب المحافظة كان الضرب قد بلَغ أقصاه، وأصبح من المُستحيل أن يتقدموا خطوةً أخرى، وكانت طائرات العدو تقصف المدينة بالصواريخ ... والمدفعية الثقيلة تضربها من بعيد ... وبدا كأن جهنَّم فتحت أبوابها. وقابَلوا أحد المسئولين عن المقاومة الشعبية، وعرض عليه الأستاذ «كريم» ما جاءوا من أجله، فقال الرجل بسرعة: اتركوا عنوانكم ورقم التليفون ... وسوف نطلبكم إذا احتجنا إليكم.

اشتدَّ الضرب ... ولجأ الثلاثة إلى أحد المَخابئ ... كانت أصوات الصواريخ تبدو واضحة وهي تئزُّ ثم تُصفر ... ثم تنفجر ... وفجأةً سمِعوا صوت انفجار قوي فوق رءوسهم، وصاح أحد الموجودين: لقد سقطت طائرة ... هذا صوت انفجارها!

وارتفعت أصوات التهليل من الموجودين جميعًا، وقبَّل الناس بعضهم بعضًا. وقال واحد: إنها الطائرة رقم خمسة اليوم.

رد آخر: بل هي رقم ستة.

قال ثالث: بل رقم سبعة.

قال رابع: إن البيان رقم ٥٦ حدَّد عدد الطائرات بأربعة ... وقد سقطت واحدة بعد ذلك ... فالمجموع خمسة ... وبلاغات القيادة المصرية دقيقة جدًّا لا تزيد، بل قد تنقص من عدد الطائرات المضروبة ضمانًا للدِّقَّة في العدد.

ودوَّت صفَّارة الأمان، وخرج الناس إلى الشوارع. كانت المدينة الباسلة قد أُصيبت بمزيد من الدمار ... ولكن الناس كانوا يبتسمون ... وكان رجال الجيش في دبَّاباتهم يمرقون في اتجاه الجبهة ... وكتائب المقاومة الشعبية تقف خلف أسلحتها عند كل شارع ... كانت مدينة تُحارب ببسالة!

وسار الأستاذ «كريم» ومعه «تختخ» و«محب»، ووصلوا إلى البيت، وقالت «لوزة»: هل اشتركتم في المقاومة الشعبية؟

رد «محب»: ليس بعد ... لقد تركنا العنوان ورقم التليفون ... وسوف يطلبوننا عندما يحتاجون إلينا.

لوزة: وأنا ... ألن أشترك بأي دور في المعركة؟

عاطف: أي دور يا «لوزة» يمكن أن تقومي به؟

لوزة: إنني أستطيع أن أبحث عن جواسيس ... فليس هناك حرب بلا جواسيس!

نوسة: على كل حال، أنا و«لوزة» يمكن أن نتطوَّع في التمريض والإسعاف؛ فقد تدرَّبنا في المدرسة على هذا العمل.

ابتسم الأستاذ «كريم» قائلًا: هذا معقول جدًّا ... وسيرحِّبون بكما.

دقَّ الجرس في هذه اللحظة، وأسرعت «سعدية» تفتح الباب للطارق، وكان ولدًا أسمر ظريفًا، يحمل بعض مَطالب البيت، وقالت الست «سميحة»: إنه إذاعةٌ متنقِّلة؛ فهو يعرف من أخبار «السويس» أكثر مما يعرفه أي شخص آخر؛ ولهذا نُسمِّيه «إذاعة»!

قال له «تختخ»: ما هي الأخبار يا «إذاعة»؟!

وابتسم الولد الأسمر وقال: المقاومة الشعبية تقوم بإعداد كمائن للعدوِّ عند مَشارف «السويس» ... الناس تقول إن قوَّات إسرائيل تُحاول دخول المدينة من جهة الشرق ... وهناك دبَّابات للعدوِّ قد تسلَّلت من «الدفرسوار»، وأخذت تجري في اتجاه المدينة ... وقد اشتركت أنا في المقاومة الشعبية!

وقف «محب» مُندفعًا وقال: ولا بد أن نشترك نحن أيضًا ... سيكون لنا دور بأية طريقة، وسأنزل مع «إذاعة»، ولن أنتظر دعوةً من أحد.

ووقف «تختخ» و«عاطف» أيضًا ... وبدون كلمة أخرى نزل الثلاثة مع «إذاعة» إلى الشارع. كانت الساعة السادسة بعد الظهر. وقال «إذاعة»: سوف نذهب إلى مسجد «سيدي الغريب»؛ فهناك تجمع المقاومة الشعبية.

وأسرع الأربعة ... يَجرُون أحيانًا، ويختفون أحيانًا خلف بعض البيوت اتِّقاءَ الضرب المُتواصل الذي كانت تتعرَّض له المدينة.

عندما وصلوا إلى «سيدي الغريب» كان عددٌ كبير من المُواطنين قد تجمَّع ... وكانت البنادق والقنابل اليدويَّة تُوزَّع عليهم مع تعليمات بالاتجاهات التي يذهبون إليها، وكان من نصيب الأصدقاء بعض القنابل اليدوية، وقام شاويش من الجيش بشرح طريقة ضربها ... وأمسك الشاويش بالقنبلة ثم رفعها إلى فوق وقال: القنبلة اليدوية عبارةٌ عن كُرة من الحديد بها موادُّ متفجِّرةٌ تشتعل عندما تنزع مِسمار الأمان، وتطير الذِّراع التي تتسبَّب في توليد شرارة داخلية تؤدِّي إلى اشتعال المواد الشديدة الانفجار، التي تؤدي بالتالي إلى انفجار القنبلة، ويتمزَّق الغِلاف الحديدي إلى شظايا قاتلة.

ومهمة قاذف القنبلة أن يرفع مِسمار الأمان ثم يقذف القنبلة تجاه الهدف لتحدُث عملية توليد الشرارة ... ثم الانفجار كما سبق أن قلنا.

ومالَ الشاويش إلى الخلف، وطوَّح ذراعه اليمنى خلفه، ثم استجمع قوَّته وتظاهر بقذف القنبلة إلى الأمام.

وعاد الشاويش يقول: إن بعض دبَّابات العدو تُحاول الاقتراب من المدينة، وستذهبون جميعًا إلى هناك. وعندما تُشاهدون الدبَّابات عليكم بالانتظار حتى تصبح في مدى القذف، ثم انزعوا المِسمار، واقذفوا القنبلة ... الآن أريد من كل واحد منكم أن يُريَني ما يفعل.

وتقدَّم المتجمِّعون حول الشاويش، وأخذ كلٌّ منهم يقوم بالتدريب، والشاويش يصحِّح لهم الأوضاع ... وقُسِّموا إلى مجموعات ... كل مجموعة لها قائد، وبعد نحو ساعة كانت كل مجموعة تسير في اتجاه.

على حسب التقسيم أصبح «تختخ» و«إذاعة» مع مجموعة، وذهب «عاطف» و«محب» مع مجموعةٍ أخرى ... وكان اتجاه «تختخ» و«إذاعة» إلى القطاع الشمالي في المدينة ... على حين اتَّجه «عاطف» و«محب» إلى القطاع الجنوبي ناحيةَ «حي الأربعين» ... وفي الطريق تعرَّف «عاطف» على ولدٍ صغير في مِثل سِنه اسمُه «محمد عبد الرازق شحاتة»، كان رقيقًا ظريفًا، ولكنه متحمِّس جدًّا للمعركة ... قال محمد: إن أبي في قِسم الأربعين، وسوف أشترك معه في القتال.

كان «محب» و«عاطف» و«محمد» هم الأولاد الثلاثة فقط في مجموعتهم، فكانوا موضع إعجاب الكِبار واهتمامهم.

عندما وصل «تختخ» و«إذاعة» إلى مَشارف المدينة، كانت هناك معركةٌ ساخنة بين الصواريخ المصرية والطائرات الإسرائيلية من بعيد ... ووزَّع قائد المجموعة من معه من الرجال والأولاد في أماكن مختلفة خلف السواتر الترابية. وبين الأنقاض ... ووجد «تختخ» نفسه مع «إذاعة» خلف جدار متهدِّم.

كان المكان مُظلمًا، ولكن السماء فوقهم كانت مُضاءة بالضرب العنيف بين الطائرات الإسرائيلية المُغِيرة ... وبين المدفعية المصرية المضادَّة للطائرات والصواريخ المصرية، وغير بعيد منهما كانت بطَّارية من المَدافع المصرية تقذف قنابلها إلى أعلى ... وكانت الطائرات الإسرائيلية تفرُّ هاربةً أمام الضرب المركَّز ... وأحسَّ «تختخ» بالفخر والحماسة ... إن مصر تُحارب ... والعدو يُحاول ولا يستطيع ... وتمنَّى في تلك اللحظة أن تظهر دبَّابةٌ أمامه ... وأن يقذفها بقنابله ويقضيَ عليها ... ولكن المعركة ظلَّت دائرة في السماء دون أن

تظهر دبَّابةٌ واحدة على الأرض. وفجأةً سمِع دويًّا شديدًا، وقال «إذاعة» وهو يميل عليه: إنه صاروخ ... انظر جيدًا ... سوف تُشاهد طائرةً تسقط!

وأخذت عينَا «تختخ» تتجوَّلان في السماء، وسُرعان ما سمِع فرقعةً هائلة على يمينه، وشاهَد طائرة للعدوِّ تنفجر في الجو ثم تهوي مُحترقةً مُضيئةً السماء بنيرانها المُشتعلة.

وانسحبت الطائرات المُغيرة ... وظهرت الطائرات المصرية قادمةً من الخلف، وأخذت تُطارد العدو ... الذي فضَّل أن ينسحب شرقًا ... وهدأ الضرب شيئًا فشيئًا، ولم يعُد يُسمَع سِوى صوت رصاصات تأتي من بعيد.

قال «إذاعة»: الآن نستطيع أن نعود!

تختخ: لماذا؟!

إذاعة: إنهم لن يهجموا مرةً أخرى قبل الفجر!

وفعلًا ظهر رجل في الظلام يقول: يُمكِنكم الآن العودة إلى مَنازلكم، على أن تعودوا مرةً أخرى قبل ظهور الشمس.

وبدأ طريق العودة، ولم يكن «تختخ» يعرف طريقه إلى البيت ... فقام الولد الأسمر الظريف بتوصيله ... وعندما صعِد إلى فوق وجد السيدة «سميحة» والخادمة «سعدية» وحدهما، وقالت السيدة «سميحة»: لقد نزل الأستاذ «كريم» بعدكم ومعه «نوسة» و«لوزة» إلى المستشفى ... فسوف تتطوَّع البنتان للعمل هناك بعد أن رفضتا البقاء في المنزل بعد نزولكما ...

كان «زنجر» يجلس وحيدًا ... وبدت في عينَيه نظرة عِتاب إلى «تختخ»، وكأنه يقول له: أنتم جميعًا مُشترِكون في الحرب، وما هو دوري أنا؟!

لم يكُن «زنجر» يعرف أن له دورًا عظيمًا في المعركة.

ضوء في الظلام

تناوَل «تختخ» طعامًا سريعًا؛ قطعة جبن ورغيف؛ فلم يكُن قد أفطر بعدُ، وجلس يستمع إلى الراديو، وفي الساعة العاشرة استمع إلى البيان رقم ٥٧ الذي أذاعته القيادة العامة للقوات المسلحة:

«استمرَّ انتهاك قوَّات العدو لقرار وقف إطلاق النار طول اليوم، حيث واصَلت إطلاق نيرانها على مواقع قواتنا شرق القناة وغربها، واستخدمت في عُدوانها أعدادًا كبيرة من الطائرات والدبَّابات والمدفعية، فتصدَّت لها قوَّاتنا، ودارت معارك جوية وبرية عنيفة، اشترك فيها تشكيلات من طائراتنا ودبَّاباتنا ومدفعيتنا ووسائل دفاعنا الجوي. وقد خسِر العدو في هذه المعارك سبع طائرات طَوال اليوم، منها ثلاث طائرات «ميراج»، وأربع طائرات «فانتوم»، وعددًا كبيرًا من الدبَّابات والعربات المصفَّحة، بالإضافة إلى خسائره في باقي المعَدَّات والأفراد، ولا يزال القتال مستمرًّا حتى ساعة إعداد هذا البيان.»

أحسَّ «تختخ» بالدم يغلي في عروقه ... وصدى المعارك البعيدة يأتي إلى أذُنَيه، وهو وحده في المنزل، فقام واقفًا وقال للسيدة «سميحة»: إنني لن أستطيع البقاء جالسًا هكذا، سأنزل أنا و«زنجر» لنتمشَّى قليلًا.

قالت السيدة «سميحة»: أين تذهب؟! إن الضرب قد يتجدد في أية لحظة، وأرى أن تنتظر عودة أصدقائك!

تختخ: سأنتظرهم في الشارع ... إنني بمُنتهى الصراحة لا أستطيع البقاء جالسًا والمعارك دائرة ... وزملائي في المقاومة الشعبية والتمريض يعملون!

ونزل «تختخ» مُسرِعًا وخلفه «زنجر» ... كان الشارع مُظلمًا مهجورًا ... فقد كانت قيود الإضاءة صارمة ... ومضى «تختخ» يتحسَّس طريقه في شارع الحرية الطويل، وأحسَّ بنسيم البحر يأتي من بعيد، فأدرك أنه يمشي في اتجاه «بور توفيق».

وفجأةً انفجر الجحيم مرةً أخرى ... فقد بدأ عددٌ من طائرات العدو يقوم بطلعاتٍ كثيفة على الجبهة ... وعلى المدينة ... وفي وسط الظلام الحالك على الأرض خُيِّل لـ «تختخ» أنه يرى شعاعًا من الضوء المتحرِّك يأتي من مكانٍ قريب ... واتَّجه «تختخ» سريعًا إلى مصدر الضوء، ولكن الضوء اختفى على الفور ... وربض «تختخ» مكانه لحظاتٍ ينتظر ... ودارت بذهنه قراءاته عن الحروب. إن وجود ضوء ليلًا بهذا الشكل المُلفت معناه وجود جاسوس يُرشِد طيران العدو إلى مكانٍ معيَّن ... وقرَّر «تختخ» ألا يترك الفرصة لكشف حقيقة هذا الضوء، وبدأ يزحف بين المَنازل المُنهارة والحُفَر الغائرة في الأرض. كان الاتجاه مباشرةً إلى مصدر الضوء مُستحيلًا وسط الأنقاض ... فأخذ يلفُّ ويدور ... وفجأةً لمع الضوء مرةً أخرى، وحدَّد «تختخ» مصدره بالضبط، وزاد من سرعته برغم صعوبة الانتقال ... وكان «زنجر» خلفه يقفز برشاقة، ويُهمهِم وكأنه يتمنَّى أن يشترك في المعركة.

واقترب «تختخ» من الضوء، وقبَع في مكانه لحظاتٍ أخرى. بدأ يتَّجه بسرعة إلى مصدر الضوء و«زنجر» يسبقه كأنه عرَف هدفه، وفجأةً أحسَّ «تختخ» بحركةٍ خلفه، وقبل أن يتبيَّن ما حدَث سقط على الأرض بعد أن هبطت على رأسه عصًا ثقيلة بضربةٍ قاسية ... وقبل أن يغيب عن وعيه سمِع «زنجر» ينبح ... ثم تلاشى كل شيء!

لا يدري «تختخ» كم مضى من الوقت وهو مُلقًى في مكانه ... ولكنه استيقظ فوجد نفسه في فِراشٍ صغير ... وسمِع حركةً تدور حوله ... حركة أقدام، ورائحة مِثل رائحة المستشفيات، ولكنها خفيفة.

ولدهشته الشديدة شاهَد «لوزة» مُقبِلةً عليه ... وظنَّ أنه يحلُم ... ماذا جاء به إلى هُنا؟ وماذا تفعل «لوزة» في هذا المكان؟ كانت تحمل بيدها دَورقًا للمياه وكُوبًا، وابتسمت له وقالت وهي تنحني عليه: أنت أول واحد من «المغامرين الخمسة» يُصاب في الحرب ...

وهزَّ «تختخ» رأسه، وأحسَّ بها ثقيلةً، وتذكَّر كل شيء، وقال: حرب ... لم يكُن لي شرف الإصابة في الحرب بعد ... إنها ضربة عصًا أو مسدَّس ...

كانت «لوزة» قد صبَّت له كوبًا من الماء وقدَّمته له، ثم مدَّت يدها تحت الفِراش وأخذت تُداعب «زنجر» قائلةً: لولا «زنجر» لما عثَرنا عليك!

تختخ: «زنجر»؟! ماذا حدَث له؟

لوزة: إنه مُصابٌ هو الآخَر ... ويبدو أن بعض الأحجار قد سقطت عليكما وأنتما تتجوَّلان وسط الأنقاض.

تختخ: ليست أحجارًا يا «لوزة» ... إنها ضربةٌ متعمَّدة من شخص!

لوزة: شيءٌ مُدهِش ... لماذا؟

تختخ: لقد شاهدت ضوءًا في مكانٍ ما ... ضوء بطارية يُعطي إشاراتٍ معيَّنة، فأدركت أن في الأمر شيئًا، وأسرعت في اتجاه الضوء، وعندما خُيِّل لي أنني اقتربت من مكانه أحسَستُ بضربةٍ صاعقة تُصيبني، ثم سمِعت «زنجر» ينبح وكأنه يشترك في صِراع، ثم غِبت عن وعيي، فما الذي جاء بي إلى هُنا؟!

لوزة: إنني أعمل أنا و«نوسة» في مركز الإسعاف هذا، وقد فوجئت منذ نحو ساعة بـ «زنجر» يأتي إلى هنا وينبح ... وبالطبع عرفت صوته على الفور، ووجدته مُصابًا بطَلَقٍ ناري ... لحُسن الحظ لم يمسَّ سِوى الجِلد فقط ... وبرغم إصابته أخذ يجذبني من ثيابي، فأدركت أنه يُريدني أن أذهب معه، وعندما طاوَعته قادني إليك وقد كنتَ قريبًا، فعُدتُ ومعي بعض متطوِّعي الإسعاف بنقَّالة ... ونقلناك إلى هنا ... وقد فحصك الطبيب وقال: إن الإصابة بسيطة ... وضمَّد جِراحك!

وظهرت «نوسة» في هذه اللحظة، وأقبلت على «تختخ» مُبتسمةً قائلةً: إنني أشترك في المعركة الآن؛ فأنا أعمل الآن في قياس درجات حرارة المُصابين والإسعافات السريعة، وهي أعمالٌ تمرَّنت عليها في المدرسة.

تختخ: وماذا تفعل «لوزة»؟!

قالت «لوزة» بخجل: إنني أنقل الأدوية، وأسقي المُصابين!

تختخ: ولماذا أنت خَجِلة؟! إن أي دور في الحرب له قيمته!

كان «تختخ» نائمًا على ظهره، فلم يرَ ما يُحيط به، كانت هناك عشرات من الأسِرَّة في مركز الإسعاف المؤقَّت، وكان هناك عددٌ من المُصابين والجَرحى ... والأطبَّاء ينتقلون بينهم ... والممرِّضون بثيابهم البيضاء. كان الجميع يعملون بحماسة، ولم تكن تُرهبهم غارات الطائرات، ولا قصف مدفعية الأعداء.

سأل «تختخ»: كم الساعة الآن؟!

ردَّت «نوسة»: إنها الواحدة إلا ربعًا بعد منتصف الليل ... وسوف تنتهي نَوبتي أنا و«لوزة» في الواحدة تمامًا.

تختخ: سوف أعود معكما!

نوسة: إن ذلك يتوقَّف على رأي الطبيب.

تختخ: إنني لا أستحقُّ العناية التي يستحقُّها الُمحاربون، وفي إمكاني أن أقوم!

وفي الواحدة بالضبط استأذن «تختخ» الطبيب في مغادرة الفِراش، ثم تَحامَل على نفسه مع «نوسة» و«لوزة» و«زنجر»، وشقُّوا طريقهم مرةً أخرى بين الأنقاض والحُفَر عائدين ... وفي الطريق توقَّف «تختخ» ينظر حوله ... ثم أشار ناحية الشرق قائلًا: في هذه الناحية كان يصدُر الضوء.

كان الهدوء يسود المدينة المقاتلة، ولا يُسمَع فيها سِوى صوت المعركة التي كانت تدور بشراسةٍ بين قوَّات العدو المتسلِّلة عند «الدفرسوار»، وقوَّات مصر الباسلة وهي تسحقهم سحقًا.

نوسة: أي ضوء؟

تختخ: لقد حكيت لـ «لوزة» ما شاهدت وما جرى لي الليلة!

ثم روى لها بسرعةٍ ما حدَث، فقالت «نوسة»: لا بد من إبلاغ الجهات المسئولة بما شاهدت.

تختخ: سأنتظر إلى الصباح، وأُحاول تحديد المكان بالنهار حتى تكون معلوماتي دقيقة ... وسأقوم غدًا ليلًا بالمراقبة مرةً أخرى.

وعادوا إلى المنزل، ووجدوا الأستاذ «كريم» و«محب» و«عاطف» قد عادوا جميعًا، وحكى كلٌّ منهم ما فعل طول الوقت. وقال «محب»: أنا و«عاطف» نعمل الآن مع قوَّات المقاومة عند قسم «حي الأربعين» ... وسوف نكون هناك في السادسة صباحًا ... فهناك توقَّع أن يقوم العدو بمهاجمة المدينة من اتجاه الجنوب الشرقي.

عاطف: لقد تعرَّفت بولدٍ مُدهِش يُدعى «محمد عبد الرازق شحاتة». إن والده شُرطي في قسم الأربعين، وهو يريد الدفاع عن المدينة مع والده، وقد اتَّفقت أنا وهو أن نلتقيَ في مكانٍ محدَّد لنشترك في القتال.

ابتسمت السيدة «سميحة» قائلةً: لعلَّكم جميعًا جَوعى؟!

صاحت «لوزة»: إنني سأموت من الجوع!

السيدة «سميحة»: سنأكل جميعًا طعام الُمحاربين ... عيش وحلاوة فقط لا غير!

نوسة: إن هذا أكثر من الكفاية!

وفي هذه اللحظة سمِعوا طَرقًا على الباب … وأسرعت «سعدية» تفتحه. وعلى العتبة ظهر ضابطٌ شابٌّ قد اتَّسخت ثيابه، وتلوَّث وجهه ويداه، ولكنه كان يبتسم. ولم يكَد يراه الجميع حتى صاحوا في نفسٍ واحد: «نبيل!»

كان الضابط «نبيل» ابن السيدة «سميحة» وخلفه أحد الجنود … ودخلا وارتمى «نبيل» على والدته يقبِّل رأسها ويدَيها … ثم سلَّم على الأصدقاء بحرارة … وقدَّم لهم زميله: زميلي الجُندي «عادل عزب» قائد سيَّارتي.

ورحَّب الجميع بالجُندي الشاب، ودعَوه للجلوس، وأشارت السيدة «سميحة» إلى «سعدية» إشارةً خاصَّة فقامت، وجلس «نبيل»، وقالت والدته: منذ عشرة أيام لم أرَك، أين كنت؟!

ابتسم «نبيل» قائلًا: بدون إذاعة أسرار عسكرية … إنني ضِمن قوَّات الجيش الثاني، وقد عبَرت القناة الليلة في مهمةٍ خاصة، وقد وافَق القائد على أن آخذ إجازةً ساعتَين؛ أي ١٢٠ دقيقة، أقضيها مع والدتي.

الأستاذ «كريم»: وكيف الحال؟

نبيل: عظيم جدًّا يا خالي … لقد كنت مع القوَّات التي اجتاحت خط «بارليف» في الدقائق الأولى … لقد أرعبناهم … وحطَّمنا أسطورتهم … وقد رأيتهم يفرُّون أمامنا وقد أطار الخوف صوابهم.

قالت «لوزة»: إن «تختخ» أول واحد فينا يُصاب في الحرب.

ضحِك «نبيل» وهو يقول: كيف؟!

وروى له «تختخ» ما حدَث، فقال «نبيل»: أين المكان بالضبط الذي شاهدت فيه الضوء؟ ووصف «تختخ» بقدر ما يستطيع المكان. فقال «نبيل»: إن هذه المنطقة هامة جدًّا … أعتقد أن هناك عمليةَ تخريب وتجسس!

وقام «نبيل» فورًا إلى التليفون، واتَّصل برقمٍ معيَّن، وأخذ يحدِّثه عما جرى …

وبعد حديث طويل أغلق السماعة ثم التفت إلى «تختخ» قائلًا: سيكون في انتظارك غدًا في التاسعة المقدِّم «أحمد» من المخابرات الحربية … وسيستمع منك إلى ما حدَث، ومن حسن الحظ أنك قلت لي ما جرى … فهناك إجراءاتٌ هامَّة لا بد أن تُتَّخذ!

ومضى الحديث بين الأصدقاء وبين الضابط المُحارِب … ثم فاحت في الجو رائحة طعام شهي … والتفت الجميع إلى السيدة «سميحة»، فقالت وهي تدقُّ الأرض بعصاها:

إن بعض الدجاجات المُحاربة تقوم بدورها في المجهود الحربي.

وفهِم الجميع ما قصدته السيدة «سميحة»؛ فقد طلبت من سعدية أن تُعَّد سريعًا طعامًا فاخرًا للمُقاتل «نبيل» وزميله «عادل».

وفي ساعة السحور ظهرت على المائدة أربع دجاجات محمَّرة، وصاح «نبيل»: العدوُّ على المائدة!

وانقضَّ المُحاربون على الدجاجات، وتطايرت الضحكات والقفشات. وفي الثالثة تمامًا نظر «نبيل» في ساعته، والتفت إلى «عادل» قائلًا: هيَّا بنا يا بطل.

وتصافَح الجميع ... وساد الصمت المنزل بعد خروج نبيل وزميله، ثم أوى الجميع إلى مَضاجعهم.

مع الدبَّابة وجهًا لوجه

في الصباح الباكر استيقظ الأصدقاء، فأسرعت «نوسة» و«لوزة» إلى مركز الإسعاف المؤقَّت، وأسرع «تختخ» إلى مقابلة المقدِّم «أحمد»، واتجه «عاطف» و«محب» إلى مقابلة صديقهما «محمد» الصغير، وحملوا جميعًا قنابلهم اليدوية واتَّجهوا إلى قسم الأربعين ... وما كادوا يصِلون إلى هناك حتى بدأت غارةٌ عنيفة من الطائرات على المنطقة ... وأسرعوا إلى حفرة على جانب الطريق وانبطحوا أرضًا. ومن مَخبئهم سمِعوا صوت دبَّابات تُزلزل الأرض قادمةً من الجنوب الشرقي للمدينة ... وأخذت المدفعية المصرية تزأر بشراسة، والقنابل تتطاير من فوق رءوس الأصدقاء الثلاثة كالمطر. وسمِعوا أحد الأشخاص وهو يجري ويقول: طابورٌ مدرَّع للعدوِّ يتقدم من المدينة ... إنهم يُحاولون الاستيلاء على «السويس»!

ونظر الأصدقاء الثلاثة بعضهم إلى بعض ... وظهرت علامات التصميم على وجوههم ثم رفعوا رءوسهم ... ومن بعيدٍ ظهرت بعض دبَّابات العدو تتقدم ... وهدفها كما هو واضحٌ قسم الأربعين حيث تتمركز قوَّات الشرطة، وبعض قِطاعات المقاومة الشعبية.

قال «محب»: سأضرب أولًا.

قال «محمد»: اترك لي مهمَّة أول ضربة.

عاطف: دعونا نتوزَّع في ثلاثة أماكن على شكل نصف مِروحة، إن ذلك سُيعطينا فرصة؛ فإذا لم يُصِب أحدنا الهدف أصاب الثاني أو الثالث، أما إذا ظهر واحدٌ منا وقذف قنبلة ولم تُصِب الدبَّابة، فسوف تفتك بنا نحن الثلاثة.

كانت طائرات العدو تضرب المدينة من كل اتجاه، والمدفعية المصرية المضادَّة للطائرات تُطاردها، والدبَّابات تُحاول التقدُّم، والصواريخ المضادَّة للدبَّابات تفتك بها، وصوت المدفعية والصواريخ والضرب يدوِّي ويُصمُّ الآذان، والأرض تهتزُّ ... ورفع «محب» رأسه وقال: ثلاث دبَّابات تقترب. سنتوزَّع الآن.

وقفز «محب» خارجًا، وزحف على بطنه إلى أقرب جدار ... ثم قفز «محمد» بعده، وأسرع يختفي في حفرةٍ وجد بها اثنَين من رجال الشرطة بالمدافع الرشَّاشة، وأخذ «محب» يستمع إلى صوت الدبَّابات المُقتربة، ثم رفع رأسه وشاهَد أول دبَّابة تقترب، وقدَّر المسافة، وقرَّر أن ينتقل من مكانه ليكون في وضعٍ أفضل؛ فقد كان يعرف أن الدبَّابة أمامها منطقةٌ اسمها المنطقة الميتة، لا يستطيع قائد الدبَّابة أن يرى منها شيئًا؛ فلو أنه ظلَّ مُختفيًا حتى تقترب الدبَّابة تمامًا لأمكَنه أن يقفز عليها دون أن يراه القائد ... وهكذا فعل «محب»؛ ظلَّ مُختفيًا، وظلَّت الدبَّابة تقترب ... حتى أصبحت أمامه تمامًا، ثم قفز من مكانه إلى أعلى الدبَّابة، ونزع مِسمار أمان القنبلة، ثم فتح غطاء البرج، وألقى القنبلة داخل الدبَّابة، وأغلق غطاء البرج بسرعة، وقفز إلى الأرض مُنبطحًا! ولم تمضِ لحظةٌ حتى كانت الدبَّابة كتلةً من النيران المُشتعلة!

كانت الدبَّابة الثانية قد دخلت نِطاق الضرب بالنسبة لـ «محمد» الصغير ... وسُرعان ما كان يقذف قنبلةً من نوعٍ جديد، اسمُها القنبلة اللاصقة، وهي عبارة عن كُرة من البلاستيك مملوءة بمسحوقٍ شديد الانفجار، تلتصق بالهدف، ثم تنفجر لتُحدِث نارًا شديدةً تجعل الدبَّابة تشتعل ... وفي لحظاتٍ كان طاقم الدبَّابة يُحاول الفِرار هربًا من تلك النيران المُشتعلة، وكان رجُلا الشرطة على استعداد، فأطلقا مدفعَيهما على طاقم الدبَّابة، فسقطوا على الأرض عدا واحدًا منهم أخذ يجري، ومرَّ بـ «عاطف» في الحفرة دون أن يراه ... وبسرعةٍ مدَّ «عاطف» قدمه أمامه فتعثَّر بها، وسقط على وجهه بشدة ولم يتحرك.

كانت المعركة مُحتدِمةً حول قسم الأربعين، وكانت إحدى الدبَّابات قد اجتازت حِصار المقاومة الشعبية، واقتربت من قسم الأربعين، وتصدَّى لها شابٌّ. أخذ «عاطف» يُشاهده وهو يخرج من وراء جدار، ثم يتقدم من الدبَّابة غير عابئ، ثم قذفها بقنبلةٍ أشعلت فيها النيران، وأطلقت الدبَّابة طلقةً أصابت الشابَّ فسقط، ولكنه ألهبَ حماس الجماهير التي تقدَّمت في صُفوفٍ مُتلاحمةٍ تصدُّ العدو ... وتضطرُّه إلى التراجع عن المدينة الباسلة. وقد فضَّل العدوُّ أن يهرب على أن يُحاول اقتحام عرين الأسد.

في تلك الأثناء كان «تختخ» يتحدث إلى المقدِّم «أحمد» الذي أخذ يستمع بانتباهٍ شديد إلى حديث «تختخ»، ويسأله أسئلةً دقيقة ... ودقَّ جرس التليفون في تلك اللحظة، ورفع المقدم «أحمد» السماعة، ثم أخذ يستمع وهو يبتسم. وعندما وضعها التفت إلى «تختخ» قائلًا: لقد صدَّ الجيش والمقاومة الشعبية محاولةَ العدوِّ اقتحام مدينة «السويس»، وقد سقط عددٌ من الشهداء الأبرار، ولكن العدوَّ أُصيبَ بخسائر فادحة في الأفراد والمعَدَّات.

تختخ: إنها معركةٌ عظيمة ... وللأسف إنني لم أُساهم فيها حتى الآن!

المقدم: كيف تقول هذا؟ إن المعلومات التي أدلَيتَ بها هامَّة جدًّا، إنها مساهمةٌ حقيقية في المعركة. لقد قمنا بنقل الذخيرة من مكانها، وفي الصباح جاءت طائرات العدو لتقذف المكان الذي كان به الجاسوس، وبالطبع لم يكن فيه ذخيرة. وهكذا فوَّتنا على العدو هدفه، وحافَظنا على ذخيرةٍ ثمينة جدًّا بالنسبة لنا.

تختخ: والآن ما هي خُطَّتك؟!

المقدم: سنُعدُّ كمائن في جميع الأماكن الهامة في المدينة؛ فمن المؤكَّد أن الجاسوس سيُحاول إرشاد العدو إلى مَخازن أخرى!

تختخ: هل تسمح لي بالاشتراك معكم؟ ... إن معي كلبي «زنجر»، وهو كلبٌ ذكيٌّ مدرَّب، وبخاصةٍ أنه اشتبك مع الجاسوس، وسوف يعرف رائحته.

المقدم: هذا يسرُّنا جدًّا، وهذا رقم تليفوني، إذا عثرت على شيء اتَّصِل بي فورًا، ولا تعتقد أن المعلومات البسيطة لا قيمة لها ... على العكس، إن أبسط المعلومات قد تكون أهمَّها، وخُذ هذا التصريح معك حتى لا يُوقِفك أحد.

تختخ: إنني أعرف هذه المسائل جيدًا، وشكرًا على التصريح!

وخرج «تختخ» وخلفه «زنجر»، وكانت المعركة على أشدِّها ... وهدير المدفعية يختلط بزئير الصواريخ بدبيب الدبَّابات على الأرض، واتَّجه «تختخ» إلى ناحية صوت المعركة الدائرة عند قسم الأربعين. كان يُحسُّ أنه يطير على الأرض وقد احتضن قنبلةً يدوية ... ووضع اثنتين في جيبه الأيمن والأيسر ... وكان «زنجر» يقفز خلفه سعيدًا ومُتحمسًا ...

واقتربا من حيث كانت المعركة قد أشرفت على نهايتها، وبدأ الطابور المدرَّع للعدو في الانسحاب بعد أن تكبَّد خسائر فادحة، وإن ظلَّ يضرب بشراسة وعنف.

مضى «تختخ» يقترب في بطءٍ بعد أن تزايَد تطايُر القنابل، والشظايا، والأحجار ... وفجأةً سمِع «زنجر» ينبح بشدة ... ويجري ناحية جدار مهدَّم. وأسرع «تختخ» خلفه، وشاهَد «زنجر» يجذب بأسنانه طرف قميص يعرفه «تختخ» جيدًا ... إنه قميص «محب».

وأسرع «تختخ» يُزيل الأحجار بسرعة، وسُرعان ما بدا «محب» وقد انطرح أرضًا، وأخذ «تختخ» يعمل بجنون حتى أزال الأحجار كلها، ثم انحنى على «محب» وفتح عينَيه، ثم جسَّ نبضه وتنفَّس الصُّعَداء ... كان المُغامر الشُّجاع ما زال حيًّا برغم أنه كان مدفونًا تقريبًا تحت الأحجار.

رفع «تختخ» صديقه وأجلسه، ثم أخرج من جيبه مِنديلًا أخذ يُزيل به التُّراب المُتراكم على وجه «محب». ومن بعيدٍ شاهَد رجال الإسعاف يعملون بهمَّة في نقل الجَرحى، فأسرع

إليهم وأخبرهم بوجود جريح. وجاء اثنان منهم ومعهما نقَّالة، وسُرعان ما كانا يحملان «محب» إلى سيارة إسعاف انطلقت به إلى المستشفى.

ابتعدت سيارة الإسعاف بـ «محب» واستمرَّ «تختخ» في تقدُّمه ناحية المعركة عند قسم الأربعين، وفجأةً سمِع صوتًا يُناديه، والتفت إلى ناحية الصوت، ووجد الولد الصغير الأسمر الذي أطلقوا عليه اسم «إذاعة» يقف خلف جدار مع عدد من رجال «المقاومة الشعبية»، فأسرع «تختخ» ينضمُّ إليهم.

قال أحد الرجال: لقد انتهت معركة قسم الأربعين تقريبًا، وانهزم العدو!

وقال آخر: لقد جئت الآن من جنوب المدينة ... وقد كانت الضربة الأولى هناك، وانهزم العدو أيضًا.

قال «تختخ»: ألمْ تصدُر بياناتٌ عسكرية حتى الآن؟!

فتح أحد الرجال راديو ترانزستور صغيرًا، وأخذ يستمع، ثم قال: ليس هناك سِوى مارشات عسكرية.

قال «إذاعة»: إن المارشات العسكرية تسبق البيانات دائمًا.

وفعلًا سكتت الموسيقى، وأعلن المُذيع عن البيان العسكري رقم ٥٨ ... ونظر «تختخ» إلى ساعته ... كانت الساعة الثانية عشرة والثُّلث.

واستمع جميع الواقفين إلى البيان:

«عند صدور الأمر بوقف إطلاق النار في الساعة ١٨:٢٥ مساء يوم ٢٢ أكتوبر بتوقيت القاهرة، كانت قوَّاتنا شرق القناة متمسِّكةً بالأرض التي استردَّتها في سيناء، ولم يُفلِح العدوُّ خلال هجماته المتكرِّرة ضد رءوس الشواطئ شرق القناة أن يكتسب منها أي جزء سِوى ثغرة في منطقة «الدفرسوار»، وهي المنطقة التي تمكَّنت أجزاء من قوَّات العدو من التسرُّب منها والانتشار في بعض المناطق غرب القناة.»

وفجأةً ظهَرت طائرةٌ تطير على ارتفاعٍ مُنخفض بحيث غطَّى صوتها على صوت المُذيع، وانتبه جميع الواقفين لها وهي تُحاول ضرب بعض مناطق المدينة والمدفعية المضادَّة للطائرات تُطاردها ... وظلَّت المعركة متَّصِلة بين الطائرة والمدفعية ... ثم هلَّل جميع الواقفين عندما استطاعت قنبلةُ مدفعٍ أن تُصيب الطائرة إصابةً مباشرةً انفجرت على أثرها في الجو، وسقطت مُشتعلةً فيها النيران.

وصفَّق الواقفون وصاحوا: الله ينصرك يا مصر. الله ينصرك يا «سادات».

وعاد الهدوء النِّسبي، وكان المُذيع يقول: «وبِذا يُمكِن تلخيص مَوقِف قوَّاتنا صباح اليوم كالآتي:

أولًا: قوَّاتنا في سيناء تحتلُّ الشاطئ الشرقيَّ لقناة السويس، وتُسيطر عليه وتؤمِّنه بقوة على طول المواجهة من رأس مثلة على الشاطئ الشرقي لخليج السويس، حتى بور فؤاد بطُول ٢٠٠ كيلومتر، وبعمقٍ يتراوح بين ١٢ و١٧ كيلومترًا شرقًا بما فيها مدينة القنطرة شرق … عدا ثغرة بسيطة من «الدفرسوار» شمالًا بطول ٧ كيلومتراتٍ مُلاصقة للبُحيرات المُرَّة، وتبلُغ المساحة التي تُسيطر عليها قوَّاتنا شرق القناة ثلاثة آلاف كيلومتر مربَّع.

ثانيًا: لا توجد قوَّات للعدو إطلاقًا غرب القناة بالقطاع الشمالي من طريق الإسماعيلية.

ثالثًا: توجد بعض وحدات فرعية للعدو مُبعثَرة ومُتداخلة بين قوَّاتنا في بعض الأجزاء غرب القناة، خلف المِحور الجنوبي، حتى ميناء «الأدبية».

رابعًا: لا توجد إطلاقًا للعدو قوَّات في أي مدينة من مدن القناة الرئيسية؛ السويس، الإسماعيلية، بورسعيد.

خامسًا: يُحاول العدو بعد إيقاف إطلاق النار صباح اليوم قَطْع الطُّرق المؤدِّية إلى مدينة السويس، ولكن قوَّاتنا تمنعه بالقوة من تنفيذ أهدافه.

سادسًا: التموين لجميع قوَّاتنا شرق القناة مستمر وبصورةٍ مُنتظمة، ولم يتوقف لحظةً واحدة، وقواتنا متمسِّكة بمواقعها في سيناء.»

وانتهى البيان، ومرةً أخرى صفَّق الواقفون … وقال أحدهم: لقد اشتركنا في منع العدو من دخول مدينتنا … إن الجيش والشعب قوةٌ واحدة …

ساد الهدوء المدينة بعدَ دَحرِ قوَّات العدو ومنعِها من دخول السويس … ومشى «تختخ» و«إذاعة» معًا في اتجاه منزل السيدة «سميحة» … كانت الدبَّابات المحطَّمة مُتناثرةً هُنا وهُناك، وما يزال بعضها يحترق … وكان الرجال يسيرون وهم يحملون أسلحتهم … وبعض قوَّات الجيش تقطع المدينة مُسرِعةً في طريقها إلى الجبهة.

ووصلا إلى شارع الحرية، وأخذا يقتربان من منزل السيدة «سميحة»، وكانت في انتظارهما مفاجأةٌ رهيبة!

ما بقي من الذكريات

لم يكُن المنزل موجودًا ... المنزل القديم الجميل أصبح كومة من الأنقاض.

لم يصدِّق «تختخ» عينَيه لأوَّل وهلة ... ظنَّ أنه أخطأ العنوان ... ولكن شيئًا واحدًا أكَّد له الحقيقة ... كان هناك جدار لم يسقط ... وكانت عليه صورة الضابط «نبيل». الصورة التي تحتفظ بها والدته السيدة «سميحة» في غرفتها. كانت معلَّقة لم تسقط، وقد بدا «نبيل» في ملابسه العسكرية يبتسم ... وبرغم الكارثة أحسَّ «تختخ» بشيء من الراحة ... إن صورة «نبيل» لم تسقط ... لقد ظلَّت معلَّقةً فوق الجدار في الدور الثالث ... وكأنها رمز للجيش المُنتصر ... رمز للجيش الذي عبَر ...

وكان بعض رجال الإسعاف يعملون بهمَّة في رفع الأنقاض. وصاح أحدهم: هنا سيدة لا زالت حية.

وخفق قلب «تختخ»، وأسرع إلى مكان الرجل، وشاهَد لدهشته وفرحته أن السيدة «سميحة» قد وقَعت وهي جالسة على كرسيها ... عصاها في يدها ... وملابسها البيضاء واضحةٌ بين الأتربة السوداء.

وهجم «تختخ» عليها صائحًا: خالتي «سميحة» ... خالتي «سميحة».

وابتسمت السيدة برغم الجِراح، وقال «تختخ»: إن الله معك!

قالت السيدة «سميحة»: إن الله معنا جميعًا ... مع مصر ...

وقد دُهش «تختخ» كثيرًا لأنه شاهَد «سعدية» تخرج من بين الأنقاض؛ فقد كانت هي الأخرى حية ... وأدرك «تختخ» أن معجزةً حدَثَت ... واستكملت المعجزة عناصرها عندما سمِع نَقنَقة الدجاج بين الأنقاض.

وحمَلت سيارة الإسعاف السيدة «سميحة» و«سعدية»، وبقي «تختخ»؛ فسوف يُحضِر بقيَّة الأصدقاء ... وسيكون من الأفضل أن يشرح لهم ما حدَث، ويُطمئنَهم على السيدة «سميحة» و«سعدية».

قال «إذاعة»: تعالَ نُمسِك الفِراخ.

وضحِك «تختخ»: إنها مهمَّة لا بأس بها؛ فموادُّ التموين في مدينةٍ مُحاربةٍ مسألةٌ هامَّة. واستسلم الدجاج دون مقاومة ... كانت قد بقِيَت ثلاث دجاجات وماتت ثلاثة ... ووجد «تختخ» أن هناك غُرفةً باقية من المنزل لم تُهدم، وبجِوارها دورة مياه. ولحُسنِ الحظ كانت غُرفةً واسعة ... وبجِوارها مطبخ. وقام «تختخ» و«إذاعة» بحبس الدجاج في المطبخ، ثم أخذا يبحثان بين الأنقاض ومعهما «زنجر» عن أشياء أخرى قد تكون مهمَّة ... ثم جمَعا ما استطاعا جمعه من أشياء، ومن بينها جهاز راديو ترانزستور كان ما زال يعمل.

جلسا صامتَين ... وأخذ «تختخ» يفكِّر ... ثم فجأةً التفت إلى «إذاعة» قائلًا: قُل لي يا «إذاعة»، ألمْ تُلاحظ وجود غُرباء في المدينة هذه الأيام؟! إنك تنتقل في كل مكان وتسمع الأخبار.

قال «إذاعة»: إنني لا أعرف كل الناس ... ولكن عمِّي يقول إن بعض سُكان المدينة الذين هجروها منذ فترة طويلة ... قد عادوا هذه الأيام.

وأحسَّ «تختخ» من هذه الإجابة أن الفكرة التي خطَرت له تمضي في طريقها الصحيح ...

فقال لـ «إذاعة»: كيف أستطيع مقابلة عمك؟!

إذاعة: إنه يملك مَقهًى صغيرًا في «السلامانية»!

وتذكَّر «تختخ» أنه سمِع عن هذا الحي الشعبي الذي اشتهر بنِضاله ضد الإنجليز.

فقال: هل يمكن أن نذهب إليه الآن؟!

إذاعة: ممكن حقًّا ... ولكن عندي بعض المشاوير هنا ... سأذهب لإتمامها ثم أعود إليك.

تختخ: اتفقنا.

وقام «تختخ» يبحث بين الأنقاض حتى عثَر على بعض الطعام، فقدَّمه للدجاج ووضع له بعض الماء، ثم خرج يقف أمام الغُرفة التي بقِيَت من المنزل يشهد حركة الحياة في المدينة الصامدة ... وما تزال المعركة دائرةً من بعيد ... ودويُّ القنابل ودَمدَمة الصواريخ تأتي كأصداءٍ واسعةٍ تمضي في قلب المدينة فتشحنها بالشجاعة.

ونظر «تختخ» إلى ساعته، كانت الثالثة والنصف بعد الظهر. ومن بعيدٍ ظهَر الأستاذ «كريم» ... وأسرع «تختخ» يلتقي به في منتصف الطريق حتى لا يُفاجأ، ولكن

الأستاذ «كريم» كان قد لمح الفراغ الذي خلَّفه البيت والأنقاض، والجدار الوحيد الواقف، فأسرع يجري والْتَقى و«تختخ»، فقال «تختخ»: أرجو أن تَطمئن، السيدة «سميحة» بخير، و«سعدية»، وحتى الدجاج.

كريم: غير معقول!

تختخ: لقد حضرت بعد إصابة البيت مباشرةً، وشاهَدت رجال الإسعاف وهم يُخرِجون السيدة «سميحة» و«سعدية»، إنهما مُصابتان لا شك، ولكن الإصابات ليست كبيرة.

ولاحَظ «تختخ» أن ذِراع الأستاذ «كريم» مربوطة، وأن في وجهه بعض تسلُّخات، وأنه يعرج قليلًا ... ولم يُلاحظ ذلك قبلًا لتركيزه على بعث الطمأنينة في نفسه.

فقال له: إنك مُصاب!

أشاحَ الأستاذ «كريم» بيده قائلًا: إصابات بسيطة ... ولكني سعيد؛ فقد اشتركت مع قوات المقاومة الشعبية في صد الهجوم الأول عند مدخل المدينة الجنوبي.

تختخ: لقد سمِعت عن هذه المعركة من أحد الأشخاص.

كريم: كانت معركةً رائعة ... وقد ولَّى العدوُّ الأدبار.

كانا يسيران، وقد اقتربا من البيت، وسأله الأستاذ «كريم»: وأين «محب» و«عاطف» و«نوسة» و«لوزة»؟!

رد «تختخ»: «محب» أُصيبَ ونقَلَته سيارة الإسعاف، و«عاطف» لم يعُد بعد، و«نوسة» و«لوزة» في مركز الإسعاف.

ودخلا إلى الغُرفة الوحيدة الباقية، وقال الأستاذ «كريم»: هل عندنا طعام للإفطار؟!

تختخ: لقد أنقذت بعض الأطعمة والأدوات المنزلية، وأعتقد أن في إمكاننا أن ندبِّر أمر إفطارنا اليوم.

وبعد عشر دقائق كانا يجلسان في الغُرفة الواسعة يتحدثان، وقبع «زنجر» على الأرض.

قال «تختخ»: إنني أريد أن أسهر الليلة بطُولها ...

الأستاذ «كريم»: أنصحك أن تقوم فتنام لك بضع ساعات حتى تستطيع السهر ... فإنني أعرف السبب ... إنه ذلك الرجل ذو البطارية. أليس كذلك؟

تختخ: نعم ... وإذا جاء «إذاعة» فاطلب منه أن ينتظر حتى أستيقظ ...

وقام «تختخ» فتمدَّد على الفِراش الذي بالغُرفة ... وسُرعان ما استغرق في سُباتٍ عميق ... على حين خرج الأستاذ «كريم»، فاختار كرسيًّا مكسَّرًا سنده على الأحجار، وجلس يستمع إلى الراديو ... ويُراقب كيف تسير الأمور في مدينةٍ مُحاربة ... وقُرْب المساء حضر «عاطف»

ثم تبِعته «نوسة» و«لوزة»، وشرح لهم الأستاذ «كريم» ما حدَث، فقالت «لوزة»: لقد علِمت كل شيء بعد حدوثه بوقتٍ قصير ... فقد أحضرت سيارة الإسعاف السيدة «سميحة» و«سعدية»، وهما الآن على ما يُرام ... وأظنُّ أنه بسبب ضِيق الأماكن في المستشفى سوف تخرُجان في المساء.

كريم: إذن سأذهب إليهما لأعرفهما أن هناك مَقرًّا مؤقَّتًا لنا.

نوسة: ستَسعَد السيدة «سميحة» جدًّا لأن جزءًا من منزلها ما زال موجودًا!

كريم: ألمْ تلتقيا ب «محب»؟

نوسة: لا ... هل حدَث شيء؟!

كريم: لقد أُصيبَ إصاباتٍ طفيفةً كما روى لي «تختخ»، ولكن لا نعرف أين هو.

بدأ الحزن لحظات على وجه «نوسة»، ولكنها تذكَّرت أنهم في حرب، وأن لا شيء ولا شخص يهمُّ ... المهمُّ مصر، فعادت تقول: هل قام بعملٍ ما؟!

كريم: نعم، قد أصاب دبَّابة بقنبلةٍ يدوية، ولكن الدبَّابة أطلقت مدفعها على الجدار الذي كان يختفي خلفه، فانهارت عليه الأحجار.

وساد الصمت لحظات، ثم قام الأستاذ «كريم» واقفًا وقال: سأذهب لإحضار أختي «سميحة» و«سعدية»، وأعود على الفور؛ فإذا حضر «إذاعة» فاطلبوا منه انتظار استيقاظ «تختخ».

وخرج الأستاذ «كريم»، وأسرع الأصدقاء الثلاثة إلى إعداد بعض الأطعمة التي أنقذها «تختخ»، وكان الخبز معفَّرًا بالتُّراب ... والجبن أسود ... ولكن الأصدقاء الثلاثة أخذوا يُعدُّون طعام الإفطار وهم سُعداء ... وبجِوارهم الراديو يُذيع الأغنيات الوطنية والموسيقى العسكرية، وفجأةً قال المُذيع:

سيِّداتي سادتي ...

جاءنا البلاغ التالي من القيادة العامة للقوات المسلحة:

بيان رقم ٥٩

استمرَّ العدوُّ في كسر وقف إطلاق النار طوال اليوم؛ فقد قامت تشكيلات من قوَّاته الجوية صباح اليوم بهجماتٍ عديدة ومكثَّفة على مَواقع قوَّاتنا في القطاع الجنوبي شرقيَّ قناة السويس؛ ففي الساعة الحادية عشرة قبل ظُهر اليوم حرَّك العدوُّ مجموعاتٍ من دبَّاباته في اتجاه مدينة السويس، وحاولت اقتحامها،

فتصدَّت لها قوَّات مدينة السويس، ودمَّرت منها ١٣ دبابة، ولا زال العدو يُواصل اعتداءاته، وفتح نيرانه على قوَّاتنا في القطاع الجنوبي.

وتبادَل الأصدقاء الثلاثة التهنئة، ثم أخذوا ينظرون في ساعاتهم انتظارًا للغروب ومدفع الإفطار ... كانت «لوزة» تجلس ساهمة؛ فقد أرهقها العطش، فقال لها «عاطف» مُداعبًا: لماذا لا تُفطرين؟

لوزة: أُفطر لماذا؟ إنني لا أشعر بأي جوع.

عاطف: اشربي.

لوزة: لم يبقَ منَّا اليوم سوى دقائق، ولم يبقَ من الشهر سوى أيام! فكيف أضيِّع صيامي؟!

عاطف: ولكن من حقِّ المُقاتل أن يُفطِر ... هكذا يقول الدين!

لوزة: ومن قال لك إنني أُحارب؟ ... إنني أُساعد فقط!

وقطع عليهما حبلَ النِّقاش أذانُ المغرب ... وأسرعت «لوزة» تُوقِظ «تختخ»، وفي هذه اللحظة اندفع «إذاعة» داخلًا، وقال وهو يلهث: جئت إليكم ببعض حبَّات الطماطم وعيشٍ طازج.

نوسة: إنك ولدٌ رائع!

وجلس الجميع يتناولون طعام الإفطار ... وعندما انتهَوا منه قال «تختخ»: سأخرج الآن مع «إذاعة» للذهاب إلى حي «السلامانية» لأُقابل عمه، وفي الأغلب لن أعود إلا في الفجر.

عاطف: إنني مُتعَب جدًّا وسأنام.

نوسة: وأنا كذلك.

لوزة: وأنا أيضًا.

خرج «تختخ» و«إذاعة» ومعهما «زنجر»، وأخذا يقطعان شوارع المدينة في حذر، ومن بعيدٍ كانت أضواء الصواريخ والمَدافع تُضيء الأفق، وبدا واضحًا أن المعركة مُحتدِمة بين جيش مصر الباسل وبين قوَّات العدو شرق القناة.

ووصلا بعد فترة إلى الحي الشعبي العتيق، واتَّجها إلى منزلٍ قديم مُظلِم تحتَه ما يُشبِه مقهًى صغيرًا، وقد أغلق أبوابه، ودقَّ «إذاعة» الباب ودخلا.

كان ثَمَّة ضوءٌ خفيف يُضيء المكان، وقد جلس عدد من الرجال والشُّبَّان حول راديو «ترانزستور» يستمعون إليه في اهتمام ... وسمِع «تختخ» شخصًا يقول: ثماني طائرات في

يومٍ واحد. لم يكُن «تختخ» قد استمع إلى بياناتٍ عسكرية منذ البيان رقم ٥٨، فقال وهو يتقدم: هل هناك بياناتٌ جديدة بعد البيان رقم ٥٨.

رد أحد الجالسين: نعم … هناك البيانان رقم ٥٩ ورقم ٦٠. لقد أسقطت قوَّاتنا ثمانيَ طائرات ميراج … هذه المرة اشتبكت طائراتنا معه، وقد شاهَدنا بعض طائراته وهي تسقط.

وجاء عم «إذاعة» وهو رجلٌ عجوزٌ أسمر باشُّ الوجه، وقدَّمه «إذاعة» إلى «تختخ» بِاسم «سرور»، فرحَّب به، ثم قال «إذاعة»: إنه صديقي يريد أن يسألك بعض أسئلة! بدا على وجه الرجل الاسترابة، وقال: أي أسئلة؟!

تختخ: لا تخشَ شيئًا يا عم «سرور» … إنني أتعاون مع جهات الأمن المصرية من أجل الوطن.

سرور: من تعرف منهم؟

تختخ: أعرف المقدم «أحمد» من المخابرات الحربية!

سرور: متى قابَلتَه؟

تختخ: صباح اليوم، وقد أعطاني تصريحًا بالتجوُّل … ها هو ذا!

ابتسم «سرور» عن أسنانٍ ناصعة البياض، وقال: لا تؤاخذني يا أستاذ، ولكن الحرب علَّمتني الحذر!

تختخ: إنني سعيد جدًّا بهذا الحذر … وأتمنَّى أن يكون كل الناس مِثلك!

سرور: تحت أمرك.

تختخ: إنني أريد أن أسألك عن أشخاصٍ غُرباء في المدينة.

سرور: الحقيقة أني قابلت بعض الأشخاص ممَّن كانوا في «السويس» منذ فترة طويلة، ولا أدري ما الذي عاد بهم إلى المدينة.

دقَّ قلب «تختخ» سريعًا، ثم قال: مِثل من؟

سرور: لا أذكُر الأسماء بالضبط يا أستاذ … فقد تركوا «السويس» من عشرين سنة أو أكثر.

تختخ: وأين قابلتهم؟!

سرور: في أماكن متفرِّقة من «السويس»؛ فأنا أتنقَّل في المدينة من أولها إلى آخرها كل يوم لنقل المُؤَن والذخائر.

تختخ: ألا تذكُر ماذا كانوا يعملون في «السويس» سابقًا؟

سرور: واحد فقط تذكَّرته، إنه كان يعمل في تجارة الساعات.

وتذكَّر «تختخ» على الفور الرجل الذي دخل إلى المَخبأ، وأشار إليه الناس، فقال: هل هو نحيف، أبيض، أشيَبُ الشعر قليلًا؟!

سرور: تمام يا أستاذ!

تختخ: إنني قابلته ... هل تتذكر أشخاصًا آخرين؟

سرور: نعم ... تذكَّرت رجلًا آخر كان يُتاجر في أجهزة الراديو!

تختخ: هل تعرف أين ألتقي بهما؟!

سرور: آسف يا أستاذ ... إنها مسائل تتمُّ بالصُّدفة.

تختخ: أرجو أن تُرسِل لي خبرًا إذا رأيت أحدهم ... أرسِلْ لي «إذاعة»؛ فهو يعرف مكاني.

سرور: أنا تحت أمرك يا أستاذ!

واستأذن «تختخ» في الخروج، وحاوَل سرور أن يُبقيَه ليشرب الشاي ... ولكن «تختخ» اعتذر لأهمية العمل المُرتبط به ... وخرج «تختخ» لا يدري إلى أين يتَّجه، وكان الظلام دامسًا في نهاية شهر رمضان ... والمدينة لا أثر للضوء فيها إلا وهجٌ بعيد لضرب المَدافع، والحرائق التي شبَّت في بعض البيوت.

كان «إذاعة» ... قد بقي في المَقهى ... وسار «تختخ» ومعه «زنجر»، فقال «تختخ»: إنك يا «زنجر» تقوم الآن بأهمِّ عملٍ قمتَ به في حياتك ... حاوِلْ أن تضعني في أثر الجاسوس الذي اشتبكت به ليلة أمس ... هل تعرف؟!

كان «زنجر» الذكي يعرف أن صاحبه يحدِّثه ... فلم يكن معهما أحد ... فأصدر نباحًا خافتًا كأنما يقول إنه فهِم ... وإنه سيُحاول ... وظلَّا سائرين حتى وصلا إلى شارع «عرابي» الذي يقطع حي «الأربعين» من منتصفه ... ثم انحرف «تختخ» غربًا في اتجاه «الزيتية» حيث توجد المناطق الصناعية في السويس، ووجد تلًّا عاليًا فصعِدا عليه ... ولم يكَد يصِل إلى قمَّته حتى شاهَد شبحًا يتحرَّك في الظلام مُحاذرًا ... انبطح «تختخ» على الأرض ... وانتظر ... كان الشبح يقترب منه ... ومدَّ «تختخ» يده إلى رأس «زنجر»، وأخذ يربِّت عليها، وفهِم الكلب الذكي أنه يجب أن يبقى ثابتًا ولا يُحدِث صوتًا.

مرَّ الشبح عند سفح التل دون أن يُشاهد «تختخ»، ثم مضى في سبيله، وسُرعان ما تبِعه «تختخ» ... وهو يفكِّر ... هل هو عدوٌّ أم صديق؟ ولكن إذا كان رجال الجيش أو المقاومة، فلماذا يمشي بهذا الحذر؟ ولاحَظ أنه يحمل حقيبة أو ربطة في يده، فما هي؟!

مضى «تختخ» مُسرِعًا، ولكن حذرًا خلف الشبح الذي مضى في طريقه، وفجأةً دار الشبح حول منزل متهدِّم ... وعندما اقترب «تختخ» من المنزل ليُتابع الشبح وجده قد اختفى ... فأسرع يَدُور حول المنزل ... ولكن لا أثر للرجل ... ولم يشكَّ «تختخ» لحظةً أنه دخل المنزل واختفى فيه ... وبحث «تختخ» عن مَدخل المنزل ... لم يكُن هناك مَدخل بالمعنى الصحيح ... فقد كان المنزل مضروبًا ... وإن لم يسقط فإن آثار القذائف فتحت في جداره أكثر من ثُقب وأكثر من فتحة ... واختار «تختخ» فتحةً واسعة نسبيًّا تسمح له بالمرور، ثم أشار إلى «زنجر» أن ينتظر وقال له: لا تدخُل الآن يا «زنجر» ... قد أحتاج إلى مساعدتك فيما بعد!

ثم نفذ من الفتحة ... كان المنزل قديمًا مكوَّنًا من أربعة أدوار ... وعددٍ كبير من الغُرَف، فمضى «تختخ» يجوس في أنحائه على ضوء بطاريته دون أن يجد شيئًا، وفكَّر للحظاتٍ أنه أخطأ، وأن الرجل ابتعد في الظلام دون أن يراه، ولكن فجأةً توقَّف وأصاغ السمع، لقد خُيِّل إليه أنه سمِع صوت أزيز خفيف في مكانٍ ما من المنزل ... وبعد لحظات استطاع أن يحدِّد مَصدر الصوت، وأخذ يقترب منه تدريجيًّا، وعندما وصل إلى المصدر تمامًا وجد بابًا مُغلَقًا، ووضع أذنه على ثقب الباب يستمع، ولكن لم يسمع شيئًا ... كان الصوت قريبًا منه جدًّا ... ولكن لا يستطيع تحديده ... وأطلق شعاع مِصباحه الرفيع ... وسرعان ما لاحَظ وجود ثلاث درجات تنزل إلى أسفل ... ونزل الدرجات الثلاث بهدوء ... وتوقَّف الأزيز ... ووقف «تختخ» ساكنًا مكانه ... وفجأةً وجد ضوءًا قويًّا يُحيط به ويَبهَر عينَيه، وصوتٌ يقول له: لا تتحرَّكْ؛ فمُسدَّسي مصوَّب إليك!

كانت القنبلة اليدوية في يده ... ولكن لم يكُن في الإمكان استخدامها ...

وعاد الصوت يقول: ألقِ بهذه القنبلة بهدوء على الأرض. وأطاع «تختخ» الصوت ... وفُتِح باب عند نهاية الدرجات الثلاث. وعلى الضوء شاهَد «تختخ» سلكًا تحت قدمه، كان سلك إنذار داسَ عليه دون أن يدري ... وهكذا وقع.

قال الصوت: ادخل.

ودخل «تختخ» ... ودخل صاحب الصوت خلفه ... وجد «تختخ» نفسه في غُرفةٍ واسعة تتوسَّطها مائدة عليها بقايا طعام ... وفي أحد الجوانب مائدةٌ أخرى مُلصَقة بالحائط عليها جهاز إرسال لاسلكي ... وكان في الغُرفة رَجلان عدا صاحب الصوت ...

وتأمَّل «تختخ» الرجال الثلاثة ... لم يكُن بينهم تاجر الساعات الذي رآه في المَخبأ ... ونزع الرجل الذي كان على جهاز اللاسلكي السماعة عن أذُنَيه ... وأخذ الثلاثة ينظرون إلى «تختخ».

قال أحد الرجال: إنه في الأغلب الولد الذي اصطدم بزميلنا رقم «٣» في الليلة الماضية ... معنى ذلك أن ما حدَث لم يحدُث بالصُّدفة ... وأنه يُطاردنا ...

قال الثاني: وما هو التصرُّف الآن؟!

الثالث: في الأغلب أنه لا يعمل وحده ... وربما كان على اتصال ببعض جهات الأمن المصرية، وهذا يعني نهايتنا.

التفت الأول إلى «تختخ» قائلًا: هل لك اتصال بجهات الأمن المصرية؟!

قال «تختخ» بكبرياء: ليس لك حق استجوابي.

ضاقت عينا الرجل وقال: في إمكاننا أن نجعلك تتحدث.

تختخ: حاوِلْ إذن وستجد أنك لا تستطيع.

اقترب الرجل من «تختخ» ومد يده بسيجارةٍ مُشتعلة، وقال: هل شممت رائحة اللحم المشوي قبل الآن؟

رد «تختخ» باحتقار قائلًا: لقد شوَيناكم على نيران خط «بارليف»؛ وبهذا شممت رائحة اللحم المشوي.

بدَت نظرةٌ وحشية في نظر الرجل، ورفع يده ليهويَ على وجه «تختخ»، ولكن الرجل الثاني صاح به: انتظِرْ ... إنني أسمع صوتًا، وأعتقد أن علينا أن نهرب فورًا ... إنه في الأغلب لم يأتِ وحده.

زنجر في المعركة

ساد الغُرفةَ صمتٌ عميق، وأخذ «تختخ» يُنصِت مع الثلاثة مُحاولًا سماع الصوت الذي تحدَّث عنه الرجل الثاني ... ولكن لم يكُن هناك أي صوت ...

قال الأول: إنني لا أسمع شيئًا!

الثالث: لعله توقَّف الآن ... ولكنِّي متأكِّدٌ أنه صوت أحجار تتساقط داخل المنزل ربما لأن شخصًا دخَله!

الأول: سأذهب للبحث ... وهناك أسلاك الإنذار إذا اقترب منا ... وخُذا حِذركما من هذا الولد.

ارتفع مسدَّسان في وجه «تختخ» الذي أخذ يتأمَّل ما حوله جيدًا ... كان يفكِّر أنه لو استطاع أن يجد وسيلة للهرب ... فإنه يقدِّم صيدًا ثمينًا لرجال الأمن ...

وخرج الرجل الأول ... ومضت الدقائق بطيئةً ... وفجأةً تحرَّك «تختخ»، فوقف الرَّجلان واستعدَّا لإطلاق النار ... ولكن «تختخ» اختار ببساطة كرسيًّا قريبًا، ثم جلس علي ووضع ساقًا على ساق.

سمع الثلاثة صوت صِراع ونُباح ... وأدرك «تختخ» أن «زنجر» قد هاجَم الرجل، ونظر بطرف عينه إلى الرجلَين ... كان أحدهما قد تقدَّم من الباب وفتحه ... والثاني قد تقدَّم خطوات في الغُرفة وقد بدا عليه الانزعاج ... وكانت فرصة «تختخ»؛ فقد مدَّ ساقه وضرب الرجل ضربةً مُوجِعة، وقفز على الفور والْتَحم معه في صراعٍ عنيف ... وسقط المسدَّس من يد الرجل، وبدأ الاثنان يُحاولان الوصول إليه ... ولكن عندما امتدَّت يد «تختخ» لتأخذ المسدَّس، صاح الرجل الثاني: لا تمدَّ يدك أكثر، وإلا ألهبت رأسك بالرصاص.

انكمشت يد «تختخ»، وفكَّ الاشتباك مع الرجل ووقف. كان الرجل الثالث الذي هاجَمه «زنجر» قد دخل الغُرفة يلهث، وأغلق الباب خلفه ... وبدت ثيابه ممزَّقة، وقد أمسك بذراعه وبدا عليه الألم الشديد.

وقال الأول: إن وجود هذا الكلب خطير جدًّا ... إن في إمكانه أن يعرف المكان مرةً أخرى؛ فبالرغم من أنني أصبته فقد استطاع الهرب، ولم يمكِّنِّي من القضاء عليه.

الثاني: لنَنسِف المكان كله! وذلك الولد معه!

الثالث: لو نسفناه الآن لوقعنا في أيدي المصريين ... سنضع فيه قنبلةً زمنيةً تنفجر مع الفجر ليبدوَ موته طبيعيًّا؛ فهو مَوعِد ... وصمت دون أن يُكمِل حديثه.

وفهِم «تختخ» على الفور أن هجومًا مدبَّرًا سيتمُّ في المنطقة، وتمنَّى لو استطاع نقل هذه المعلومات إلى من يهمُّهم الأمر ... وقال الرجل الأول: اربط هذا الولد جيدًا ... وسأقوم أنا بوضع جهاز اللاسلكي في الحقيبة.

ثم التفت إلى الرجل الثالث وقال: وعليك أن تُعدَّ القنبلة الزمنية ... واضبِطها على الخامسة والرُّبع صباحًا.

وتقدَّم الرجل من «تختخ» فربطه في الكرسي الذي كان يجلس عليه ... وكمَّمه جيدًا، وكان كلٌّ من الرجلَين الآخرين يقوم بمهمته.

بعد دقائق قليلة انتهى الثلاثة من عملهم، وقال أولهم: والكلب؟!

الثاني: لقد استطعت أن تُصيبه، وأظنُّ أنه لن يذهب بعيدًا. وإذا التقينا به في طريقنا فسوف أقضي عليه.

الثالث: ألا نبحث عنه؟

الثاني: أين نبحث في هذا الظلام؟ ... ثم إن الوقت ضيِّق ... فقد يكون لهذا الولد أصدقاء يتبعونه ... أو يكون له علاقة برجال الأمن ... هيَّا بنا سريعًا!

وانطلق الثلاثة، وأغلقوا الباب على «تختخ» الذي سمِع وَقْع أقدامهم وهم يبتعدون، ثم ساد الصمت ... وأخذ يفكِّر في الموقف ... لم يكُن في إمكانه أن ينظر إلى ساعته، ولكنه قدَّر أن الساعة لا تتجاوز العاشرة ... فهناك وقتٌ طويل قبل أن تنفجر القنبلة ... ولكن ماذا سيحدُث في هذا الوقت؟ الأمل الوحيد معلَّق بـ «زنجر» ... ولكن «زنجر» — كما سمِع من الرجال — قد أُصيب ... وقد تكون إصابته مُميتة.

أخذ «تختخ» يحرِّك يدَيه مُحاولًا التخلُّص من الوثاق، ولكنه كان مربوطًا بإحكام، كذلك كانت قدماه ... وكان فمه مكمَّمًا لا يُمكِنه من الصِّياح ... ومضت ساعة تقريبًا ...

وظلَّ ذِهن «تختخ» يقظًا، وأعصابه هادئة، برغم صوت القنبلة التي كانت تدقُّ كالساعة ... وكل دقة تقرِّبه من موتٍ محتوم.

وفجأةً سمِع صوت هَمهَمة يصدُر قريبًا منه ... وشاهَد لمبةً حمراء في جانب الغُرفة تُضيء، فعرف أن أشخاصًا داسوا على سلك الإنذار ... ثم سمِع صوت أظافر تعمل في الباب ... إنه «زنجر»، ولكن هل هو وحده؟ ...

ثم سمِع صوتًا يقول: «تختخ» ... «تختخ»؟! ...

وعرف على الفور أنه صوت «عاطف» ... ولم يتردَّد ... انكفأ إلى الأمام وسقط على ركبتَيه مُرسِلًا صوتًا داويًا ... وسمِع النداء بِاسمه يرتفع، ثم صوت أدوات تعمل في الباب، وبعد لحظات ظهر «عاطف» واندفع من تحت قدمَيه «زنجر» ... جاريًا ... أسرع «عاطف» يفكُّ وثاق «تختخ» الذي لم يكُن يصدِّق أن الإنقاذ تم بهذه السرعة.

وانحنى «تختخ» يربِّت على «زنجر» ... الذي بدا عليه الإجهاد ... فقد كان جسده يرتعد من التعب، وقد تورَّمت عينه من ضربةٍ قاسية.

قال «عاطف»: لقد أيقظني «زنجر» من النوم، وأخذ يجذبني حتى أحضرني إلى هنا. ماذا حدث؟!

تختخ: لقد وقعت بالصُّدفة على بعض الجواسيس ... إنهم يحملون جهازًا لاسلكيًّا ويتَّصلون بالعدو ... ويبدو أنهم يحدِّدون له الأهداف التي ينبغي ضربها حتى تستسلم «السويس»، بعد أن أخفَق في غزوها بالدبَّابات.

عاطف: يجب أن نتَّصل فورًا بجهات الأمن!

تختخ: إنني أعرف المقدم «أحمد» ... فهيَّا نذهب إليه فورًا!

أسرع الاثنان في الظلام ... كانت المسافة بعيدة، والطُّرق تملؤها الحُفَر والمطبَّات، ولكنهما نسِيا كل شيء، ووصلا يلهثان إلى مَقرِّ المقدم «أحمد» الذي استمع إلى «تختخ» باهتمامٍ بالغ ... وسُرعان ما كانت سيارة «جيب» تحملهم ومعهم خبير المُفرقَعات إلى مَقرِّ الجواسيس السِّري ... وبينما أخذ خبير المُفرقَعات يفكُّ القنبلة الزمنية ... قام الباقون بتفتيش المنزل ...

وقال المقدم «أحمد» وهم يدخلون إحدى الغُرَف: لقد كانوا يعيشون هنا أيضًا ... ومعنى ذلك أنهم الآن بلا مأوًى ... إلا إذا كان لهم مأوًى آخَر.

تختخ: هل وضعتم كمائن في الأماكن الهامَّة كما قلت؟

أحمد: طبعًا، إنهم لن يستطيعوا الاقتراب من أي مكان له أهميةٌ عسكرية.

وانتهت مهمَّتهم في المنزل المهجور، وحمل خبير المُفرقَعات القنبلة، وحمَلتهم السيارة مرةً أخرى إلى وسط المدينة، فعاد المقدم ورجاله إلى مَقرِّهم، وذهب «تختخ» و«عاطف» و«زنجر» إلى الغُرفة الوحيدة، التي بقيت من منزل السيدة «سميحة»، وقال «عاطف»: لقد نِمت كثيرًا، وفي إمكاني أن أسهر وأن تنام مكاني؛ فليس هناك أماكن كافية بعد أن عادت السيدة «سميحة» و«سعدية» من المستشفى.

تختخ: سأنتظر حتى مَوعد السحور.

وجلس أمام الغُرفة في الظلام ... كانت رأس «تختخ» مَسرحًا لأفكارٍ مُتعددة ... إن المقدم «أحمد» ورجاله الآن يقومون بعمليةٍ بحثٍ دقيقة في المدينة كلها عن الجواسيس الثلاثة وغيرهم ... ولكن في مدينةٍ مهدَّمة ... وأنقاض ... وفي أثناء الحرب يصبح من الصعب جدًّا العثور عليهم ... ففي إمكانهم اختيار منزل مهدَّم كمَقرٍّ لا يمكن لأحدٍ أن يتعرَّف عليه.

التفت «تختخ» إلى «عاطف» قائلًا: اسمع يا «عاطف»، إذا تصوَّرت — مجرَّد تصوُّر — أنك جاسوس في مدينةٍ مُحاربة، فماذا تفعل؟!

فكَّر «عاطف» لحظات ثم قال: لا بد أن تكون معي أوراقٌ مزوَّرة بأنني من أهل المدينة ... ومن الأفضل أن تكون معرفتي بالمدينة كاملةً!

تختخ: كأن تكون قد أقمت فيها قبلًا.

عاطف: بالضبط!

تختخ: هذا ما فكَّرت فيه!

عاطف: ثانيًا لا بد أن أختلط بالناس؛ حتى لا أبدوَ مُنفردًا فأُثير الانتباه!

تختخ: عظيم!

عاطف: ثالثًا أكون قد درست طريقة الفِرار ... بحيث إذا ما انكشف أمري أتمكَّن من الهرب.

تختخ: هذا ما فكَّرت فيه بالضبط ... والآن إذا كانت هذه المدينة هي مدينة «السويس»، فكيف تتصرَّف؟!

عاطف: أكون في أقرب نقطة إلى الحدود لأهرب في الوقت المُناسب.

تختخ: هذا ما فكَّرت فيه تمامًا ... إنني لا أتصوَّر أن مصريًّا يُمكِن أن يخون وطنه. وقد وضعت نفسي مكان العدو، وتصوَّرت ما يُمكِن أن يفعله إذا أراد القيام بعمليات تجسُّس وتخريب داخل «السويس». لقد اختار بعض اليهود الذين كانوا يُقيمون في «السويس»

وتركوها إلى إسرائيل؛ لأنهم يعرفون «السويس» جيدًا … ويتحدثون اللغة العربية، ومن النادر أن يتذكَّرهم أحد؛ لأنهم خرجوا حواليَ سنة ١٩٥٦م بعد العُدوان الثلاثي … أي منذ ١٨ سنة تقريبًا … هؤلاء يمكن أن يكونوا أفضل الجواسيس لهذه العملية!

عاطف: أُوافقك على كل هذه الاستنتاجات … ولكن إلى أين تصِل بنا؟!

تختخ: أعتقد أن هؤلاء الجواسيس في الأغلب سيسكُنون أو يعيشون قريبًا من أماكن سكنهم القديمة، بل إن بعضهم إذا وجد منزله القديم وقد هجره سُكانه، ففي الأغلب يفضِّل أن يسكُن فيه … تجديدًا لذكرياته … أليس هذا معقولًا؟ …

عاطف: معقول جدًّا …

تختخ: وعندنا ذلك الرجل تاجر الساعات … لقد كان معنا في المَخبأ عندما وصلنا أول يوم، ومعنى ذلك أنه يسكُن قريبًا من هنا.

عاطف: هذا جائز!

تختخ: ومعنى ذلك أيضًا أن السيدة «سميحة» … ربما تعرفه!

عاطف: جائز أيضًا.

تختخ: تعالَ نتحدث معها.

عاطف: إنها نائمةٌ الآن.

تختخ: لنُوقِظها. إن رجال الأمن في «السويس» يقومون بحملةٍ ضخمةٍ الآن للقبض على هؤلاء الجواسيس … وستكون مهمَّتهم صعبة، ولكن في إمكاننا نحن أن نضع أيديَهم على أول خيط إذا عثرنا على تاجر الساعات.

ودخل «عاطف» إلى الغُرفة الواسعة … كانت السيدة «سميحة» و«نوسة» و«لوزة» ينَمنَ معًا … وتقدَّم من السيدة «سميحة» وناداها … واستيقظت السيدة على الفور، وقال «عاطف»: عمَّتي، إن زميلي «تختخ» يريد أن يتحدث إليكِ في أمرٍ هام … فهل يُمكِنك؟!

سميحة: طبعًا يا «عاطف»، إنني ما زِلت قوية برغم ما حدَث!

واستدعى «عاطف» «تختخ» الذي اتَّجه إلى السيدة «سميحة»، وسلَّم عليها، ثم قال: إنني أريدك أن تُجهدي ذاكرتك وتعودي إلى الوراء عشرين عامًا.

ردَّت السيدة: إن ذاكِرتي دائمًا قوية … فاسأل ما تشاء!

تختخ: هل تذكُرين تاجر ساعات كان يسكُن هنا في هذا الشارع … وربما قريب جدًّا من مَسكنك … منذ ثمانية عشر أو سبعة عشر عامًا؟!

أخذت السيدة العجوز تنظر إلى الولدَين وقد بدت في عينَيها نظرةٌ ساهمة، على حين تعلَّقت أنظار «تختخ» و«عاطف» بشفتَيها.

نهاية جاسوس

أخيرًا قالت السيدة «سميحة»: نعم، أتذكَّر هذا الرجل … كنَّا نعرفه جميعًا بِاسم «إيليا» … وكان يملك محلًّا لبيع الساعات وتصليحها في شارع «عبَّاس» التِّجاري، ولكنه كان يسكُن قريبًا منَّا … وأول ساعة اشتريتها لابني الكبير كانت منه … كان يسكُن بعدنا بخمسة مَنازل ناحية «سيدي الغريب».

قام «تختخ» مُسرِعًا قائلًا: أشكرك جدًّا يا ست «سميحة»، إن ذاكرتك العظيمة قد تضعنا خلف شبكة الجواسيس.

فتحت السيدة «سميحة» فمها في دهشة وقالت: ولكن ما دخل «إيليا» بالجواسيس؟

تختخ: ستعرفين فيما بعد، هيَّا يا «عاطف» … إذا صحَّت استنتاجاتنا فقد نعثُر على «إيليا» ونضع يدنا على قصة الجواسيس كاملةً.

خرَجا إلى الظلام وكان صدى المعارك الدائرة يُسمَع من بعيد … ووهجُ النيران المُشتعلة في بعض المواقع التي ضُربت يُضيء الأفق … وسارا … لم يكن هناك أحدٌ يمرُّ في هذه الساعة المتأخِّرة من الليل … وأخذا طريقهما إلى حيث وصفت السيدة «سميحة» المنزل الذي كان يُقيم فيه «إيليا» قبل ثمانية عشر عامًا … وحدَّدا المنزل بعد تعب شديد … فقد كانت أكثر المَنازل التي بجواره قد هدمتها القنابل، وأصبح من الصعب معرفة المكان بالضبط … ووجدا المنزل سليمًا لم يُمَس، وكان ذلك شيئًا مُدهشًا.

كان «زنجر» يسير خلفهما … وعندما توقَّفا أمام المنزل هَمْهم «زنجر» وبدا قلِقًا … فالتفت إليه «تختخ» قائلًا: هل عثر على شيء؟!

وعادت الهَمهَمة مرةً أخرى … وأدرك «تختخ» أنهما وقعا على الصيد المطلوب، فقال لـ «عاطف»: سأدخل أنا و«زنجر» وتبقى أنت للتغطية، إذا لم أعُد بعد ربع ساعة على الأكثر فادخل خلفي، وكُن حذِرًا؛ فإذا وجدت أني في خطر فاذهب فورًا إلى المقدم «أحمد» … وسوف يأتي برجاله، وسوف تنتهي العملية كلها في دقائق.

ولكن قبل أن يتحرك «عاطف» من مكانه ... خرج رجل من المنزل في الظلام ... ووضع «تختخ» يده على ظهر «زنجر» حتى لا يتحرك ... ولا يُهاجم الرجل الذي وقف قليلًا في الظلام يتسمع ... ثم سار مُسرِعًا ... وبعد أن ابتعد عِدَّة أمتار ... تبِعه الثلاثة «تختخ» و«عاطف» و«زنجر»!

سار الرجل في الظلام مُتجنبًا الشوارع الكبيرة ... وكان يتَّجه جنوبًا ناحية حي الأربعين حيث دارت معارك الصباح التي هُزمت فيها قوات العدو، وارتدَّت أمام مقاومة «السويس» العنيدة ...

من منزلٍ متهدِّم إلى منزلٍ متهدِّم ... ومن حفرة إلى حفرةٍ سارَ الرجل حذِرًا والثلاثة خلفه ... كان في إمكانهم أن يُهاجموه في أية لحظة، ولكن «تختخ» كان يريد أن يعرف إلى أين يذهب. ووصلوا في النهاية إلى الساحة التي دارت فيها أروَع معارك المقاومة ... وانحنى الشبح ثم بدأ يتقدم مُحاذرًا من دبَّابة قد أُصيبت في المعارك ... ووقف ساكنًا لحظات، ثم دُهش «تختخ» و«عاطف» لأنه تسلَّق الدبَّابة مُسرِعًا، وفتح غطاء البرج ودخل، وبسرعةٍ همس «تختخ» في أذن «عاطف»: أسرِع أنت إلى المقدم «أحمد»، واطلب منه أن يحضر فورًا ... وسأبقى هُنا وأمنع الرجل من الخروج؛ فما زال معي بعض القنابل اليدوية.

أسرع «عاطف» مُبتعدًا، ووقف «تختخ» مُختفيًا خلف دبَّابة أخرى قريبة ومعه «زنجر»، وأخذ يفكِّر ... ماذا يفعل الرجل في الدبَّابة؟! وقرَّر أن يقترب ويتسمَّع، وبهدوءٍ شديدٍ اقترب ووضع أذنه على باب الطوارئ في الدبَّابة، ولدهشته الشديدة سمِع صوت رجلَين يتحدَّثان كان حديثهما واضحًا، فاستطاع أن يسمعه كله.

قال الأول: لقد استطعت إصلاح الدبَّابة، وهي صالحةٌ الآن للسَّير ... إنهم لن يتوقَّعوا أن تشترك في المعركة غدًا صباحًا ... وستكون مفاجأة لهم، وسنتمكَّن من شقِّ طريقنا إلى قلب المدينة.

الثاني: اتَّصِل لاسلكيًّا بقوَّاتنا وأخبِرهم أن المَقرَّ السِّري لنا قُرب «الزيتية» قد اكتُشف ... وقد وضعنا فيه قنبلةً زمنية لتنسفه في الصباح عند الهجوم ... حتى يظنَّ المصريون أنه نُسِف في المعركة، وسأتركك الآن وأعود إلى «إيليا». إنني وبقيَّة المجموعة سوف نذهب إلى منطقة «الزيتية» لوضع بعض القنابل لإحداث تخريب في المنطقة ... وستنفجر القنابل مع هجوم الطيران لإحداث ارتباك بين صفوف المقاومة ... وأعتقد أن المدينة ستنهار بعد ذلك.

وابتعد «تختخ» بهدوء، وبحثَ بسرعةٍ حوله حتى عثر على قطعة من الخشب وأمسكها في يده، ثم انتظر، وبعد لحظات ظهر الجاسوس فوق الدبَّابة، ثم انحدر بهدوء وبدأ السير،

ولكنه لم يَسِر سِوى ثلاث خطوات عندما هبطت عليه قطعة الخشب بضربةٍ قويةٍ سقط على أثرها دون أن ينطق بآهةٍ واحدة.

سحب «تختخ» الرجل جانبًا ... ووجد معه مسدَّسًا أخذه منه، وقرَّر أن يُهاجم الرجل الباقيَ في الدبَّابة إذا تأخَّر «عاطف» في العودة ومعه رجال المقدم «أحمد»، وأخذ يفكِّر في خُطة الهجوم ... وتأكَّد أن باب الطوارئ في الدبَّابة معطَّل، وإلا لاستخدمه الجواسيس في تحرُّكاتهم ... وهكذا لن يتمكَّن الجاسوس الباقي من الخروج إلا عن طريق البرج، وفي إمكانه إصابته بطلقةٍ واحدة ... وربض في الظلام وبجِواره «زنجر»، ثم سمِع صوت سيارة من بعيد ... توقَّفت على مسافة منه ... وصوت أقدام تقترب ... ولفرحته الشديدة وجد المقدم «أحمد» يقف بجِواره.

أشار «تختخ» إلى الدبَّابة قائلًا: بقي هناك رجل. أما الآخر فهُنا. وأشار إلى جدارٍ مهدَّم حيث جسم الرجل.

تحرَّك المقدَّم «أحمد» سريعًا، وأشار إلى عدد من رجاله فاقتربوا من الدبَّابة، ثم أخرج من جيبه مسدَّسًا ودقَّ بكعبه على الدبابة ... وارتفع صوت الرنين في الهدوء الشامل، ولكن أحدًا لم يرد.

صعِد المقدم «أحمد» فوق برج الدبَّابة، وفتح الباب، وأطلق ضوءًا قويًّا من بطاريته داخل الدبَّابة، وصاح: اخرُج فورًا! إنك مُحاط من كل جانب!

مضت لحظات، ثم ظهر شبح رجل يرفع يدَيه إلى فوق، وسُرعان ما جذبه المقدم «أحمد» إلى الأرض، وأحاطت به الأضواء التي أطلقها الرجال من كل جانب، وبدا كالفأر المذعور وسط دائرة الرجال.

قال المقدم «أحمد»: لقد قمتَ بدَورٍ خطيرٍ يا «تختخ»، وسوف نجعل هذا الفأر المُرتعد يعترف بكل شيء!

تختخ: أستأذنك في أن أقوم بعمليةٍ صغيرة أخرى تُرضي مشاعري كمُغامر ... إن الرجل الذي كان بداية الخيط في القبض على الجواسيس ما زال حرًّا، وأعتقد أنني أعرف مكانه ...

أحمد: لا تذهب وحدك ... خُذ بعض الرجال معك ... فسوف أكون مشغولًا في استجواب هذا الرجل وزميله.

وأسرع «تختخ» و«عاطف» و«زنجر» ومعهم ثلاثة رجال إلى منزل «إيليا»، وبعد نصف ساعة تقريبًا أشرفوا على المنزل ... وتقدَّم «تختخ» بهدوء إلى الباب ودقَّه ... وانتظر

فترة، ثم سمِع صوت أقدام، وفتح الباب، وعلى عتبته كان «إيليا» واقفًا بثياب النوم ... نظر كلٌّ منهما إلى الآخر ... ولاحَظ «إيليا» الأشباح التي تقف في الظلام، وأدرك أنه وقع. وقد دُهِش «تختخ» دهشةً شديدة؛ فقد بدت على وجه «إيليا» علامات استسلام ورضًا ... كأنه ارتاح إلى هذه النهاية.

وقال «إيليا»: تفضَّلوا ...

ودخلوا جميعًا ... وقادهم «إيليا» إلى غُرفة نوم ... تكوَّمت فيها بعض أجهزة اللاسلكي الصغيرة والقنابل ... وجلس على الفِراش قائلًا: سألبس ثيابي وآتي معكم، إن هذه هي النهاية العادلة ... فقد جئت للاشتراك في تدمير هذا البلد الذي عِشت فيه أجمل أيام حياتي ...

وأخذ «إيليا» يرتدي ثيابه وهو يتحدث: لقد دُفِن في هذه الأرض آبائي وأجدادي، بل إن لي ابنًا مات هنا ... فأنا أنتمي إلى هذه الأرض أكثر من أي مكان في العالم.

تختخ: لهذا عُدت؟!

إيليا: لقد قبِلت هذه المهمة من أجل وطني الجديد إسرائيل، مُتنكرًا لمصر التي رُبِّيت فيها وعِشت على خيراتها ... وإنني نادمٌ أشد الندم على ما فعلت.

واقتاده الرجال الثلاثة إلى الخارج، ومضت السيارة به، على حين وقف «تختخ» و«عاطف» و«زنجر» في الظلام يرقُبون السيارة وهي تبتعد.

قال عاطف: شيءٌ غريبٌ حديث هذا الرجل.

تختخ: إن شخصيَّته هي التي حدَّدت خط العمل بالنسبة لي ... فعندما قابَلناه أول مرة في المَخبأ ... وسمِعت الناس يقولون إنه كان غائبًا عن «السويس» هذه الفترة الطويلة، دُهِشت لعودته ... ثمانية عشر عامًا أو أكثر ... ثم يعود ... شيءٌ غريب ... ثم تذكَّرت ما سمِعناه من خروج عدد كبير من اليهود من مصر بعد عام ١٩٥٦م؛ أي بعد العُدوان الثلاثي، وقلت لنفسي ... لو أن العدو أراد أن يُرسل جواسيس إلى «السويس» لأرسل بعض هؤلاء الذين كانوا فيها سابقًا ... وهكذا ظلَّ وجه «إيليا» أمامي عندما شاهدت الضوء أول ليلة ... الضوء الذي كان يُحاول به الجاسوس أن يحدِّد مكان الأهداف المهمَّة في المدينة ... وقلت في نفسي إن «إيليا» وراء هذا العمل بشكل أو بآخَر.

عاد «تختخ» و«عاطف» و«زنجر» إلى الغُرفة الصغيرة ... وكم كانت مُفاجأةً أن كان «محب» قد وصل أيضًا ... كان مربوطًا بالشاش في أكثر من مكان في جسمه ... وقد اختفى جزءٌ كبير من وجهه خلف الأربطة.

وكانت ساعة السحور قد أقبلت ... واجتمعوا جميعًا حول طعام خفيف ... العمة «سميحة» والأستاذ «كريم» و«تختخ» و«عاطف» و«محب» و«نوسة» و«لوزة» ... و«سعدية» ... والكلب «زنجر».

وفي الهدوء الذي ساد المدينة في تلك الليلة سمِعوا صوت أقدام وحديث في الخارج، وتوقَّفت السيدة «سميحة» عن الطعام، وأرهفت السمع ثم قالت: إنه «نبيل»!

وأسرع «عاطف» خارجًا ... ووجد «نبيل» فعلًا يقف بين الأنقاض وقد ظن أن لا أحد على قيد الحياة ... ولكن «عاطف» صاح به ... «نبيل»؟!

والتفت «نبيل» إلى «عاطف» ... وتوقَّف لحظات، فقال عاطف: كلُّنا بخير!

وأسرع «نبيل» إلى الداخل يحتضن والدته.

يوم ٢٥ أكتوبر

استيقظت المدينة على هجومٍ شَرِس، ووقف الجيش والشعب في السويس يصدُّون الهجوم، واستمرَّت المعارك ... وبعد الظهر حاوَل العدوُّ دخول المدينة من ناحية «المثلث» ومن ناحية «الهويس» ... ولكن رُدَّ على أعقابه ...

وفي الثالثة و١٥ دقيقة صدر البيان رقم ٦١:

> «لثالث يوم على التوالي يُواصل العدو انتهاكه لقرار مجلس الأمن بشأن إيقاف إطلاق النار، وقد عاوَد العدو محاولاته ظُهْر اليوم لاقتحام مدينة «السويس» بالدبَّابات والمدفعية، فتصدَّت له قواتنا المسلَّحة، ودمَّرت له ١٣ دبابة، وأجبرت الباقيَ على الانسحاب مرةً أخرى خارج المدينة، ولا زالت قواتنا في سيناء تُسيطر على المساحات التي استردَّتها، وتقوم بتأمينها ضد أي هجوم لقوات العدو ... كما أن قواتنا في غرب القناة مُتماسكة.»

كان الأصدقاء يستمعون إلى هذا البيان وهم جميعًا يقفون خلف أحد الجُدران، ومعهم قنابلهم ... وكانت الدبَّابات الإسرائيلية المحطَّمة تحترق وترتفع منها أعمدة الدخان.

وقال «محب» من خلف الضِّمادات التي تغطِّي وجهه: لن يهجم العدوُّ على «السويس» مرةً أخرى ... لقد أدرك أنها مدينةٌ صُلبة لا يمكن دخولها ... إن جيش مصر لم يعبُر وحده ... ولكن مصر كلها عبَرَت ... ولن يستطيع شيء في العالم أن يُوقِف مسيرتها!

وظهر ولدٌ صغير يحمل صورة الرئيس «أنور السادات»، وعرف الجميع أنه «إذاعة»، وظلَّ «إذاعة» يقترب ويقترب ... وصورة الرئيس تكبُر وتكبُر ... حتى بدا للأصدقاء أنها ملأت الأفق ... رمزًا لمصر ... ولانتصارها.


هنداوي